أدب الرحلة

رأيت في الهنـد...

يوميات كاتب في بلاد العجائب

رابح خدوسي

الطبعة الثانية

منشورات الحضارة

منشورات الحضارة
ص.ب (04) بئرالتوتة- الجزائر
البريد الإلكتروني: kheddoucir@yahoo.com
السداسي الأول 2022
ردمك:978-9931-761-09-9

حقيبة الأفكار وأسئلة السفر

عندما وصلتني الدعوة لزيارة الهند شرعت في ترتيب حقيبة أفكاري قبل حقيبة أسفاري، أفكاري التي تناثرت كحبات العقد في بالي و خيالي، وغرقت في أسئلة الحيرة وحيرة الأسئلة، كفيلسوف تائه بين العقل والوجدان...

أيّة قوّة هذه التي تدفعني إلى الترحال، والسفر قطعة من العذاب كما يقال؟!

لم تكن رحلتي رغبة في نزهة خارج الديار أو لمهمّة معيّنة.. بل كانت إرضاء لقوّة باطنية غامضة مشبعة بشغف الاكتشاف، وكذلك لتحقيق حلم قديم نائم لإرواء فضول ظامئ عنوانه البحث عن الحقيقة.. أطلبوا الحقيقة ولو في الهند!!

يرحل المرء أحيانا للبحث عن شيء افتقده في موطنه،أو عن ذاته التي قد يكون ضيّعها بين المعقول واللامعقول، وسط أهله و أصدقائه و يبحث عن الدفء والحب و الراحة في وطن آخر يعترف به، يبحث عن مكان لا يشبه الأمكنة التي عرفها سابقا ...

يمكنك أن تشتري تذكرة طيران وتجول العالم بسهولة، لكن الرّحلة إلى أعماق نفسك ليست كذلك، لأنها تجعلك تقف أمام مرآة العقل لتتعرّف على أسرار شخصيتك لحظات قوّتك وضعفك، وتستحضر الأفكار والمواقف والتجارب التي مرّت بك عبر الأيام والسنين، وتسأل نفسك كم مدّة خنت فيها ذاتك والآخرين، وكم يلزمك من رحلة إلى أعماقك لتعرف من أنت؟!

هكذا كنت أفكر من حين لأخر و أنا على أهبة السفر... أتذكر" الإنسان ذلك المجهول" وهو عنوان كتاب لمؤلف انجليزي، فعلا أليس الأحرى بالإنسان أن يكتشف الإنسان نفسه قبل البحث في شأن الآخرين، تاريخهم وآثارهم، كما أفعل كلّ مرّة في رحلاتي؟!

الأهم في الرحلات السياحية أن تعرف حدود جغرافيتك، وثقافة المكان وأسرار الشعوب، لكن في رحلة أعماقك لا تكتشف حدود الحقائق و المجازات وخفايا الذات، يقال: إذا غيّرت نظرتك للأشياء تتغير الأشياء، فهل يتغيّر العالم داخلك إذا غيّرت نظرتك لنفسك ؟!.

....

عندما يبتسم لك القدر لاينتظر منك أن تحدّد له موعدا للفرح، لأنه يمنحك الأسباب وإذا تردّدت يبعدها عنك... هذه فرصة لزيارة الهند، هل أوافق أم انتظرها في زمن آخر بعد الإجابة عن أسئلة الحيرة ؟!

بعد تفكير وتردّد بين القبول والعدول، حدّثني عقلي بهدوء: عليك أن تكون حدّادا ماهرا لتشحذ من فولاذ القلب صمّام الأمان، وتصنع من أحلامك مطرقة تدّق بها أبواب العالم في الأحلام و اليقظة، ومن عذب الكلام مفاتيح تلج بها قلوب الآخرين...

حظيت بنفس توّاقة و ربّ كريم، تتوق إلى الشيء فتناله و لله الحمد.. عندما كنت في أجواء بومباي قاصدا ماليزيا وسنغافورة ربيع 2017م هفت روحي إلى زيارة الهند، فاستجابت العناية السماوية في خريف 2019م إذ وصلني من الصديق "حمو عبد الكريم" من جامعة وهران عرض المشاركة في مؤتمر دولي بالهند مرفق بالمحاور والشروط ،وموضوعه "صورة الهند في الأدب العربي"، ينظّمه مركز الدراسات العربية والإفريقية .

وإذا تصفّحت محرك البحث في جهازك على النت لتعرف هوية هذا المركز المضيف، تجدالجواب سريعا: أنشئ عام 1971م باسم مركز اللغات الأفريقية والآسيوية، وفي

1996م تمّ تقسيمه إلى مركزين مستقلين: مركز الدراسات العربية والأفريقية، ومركز الدراسات الفارسية وآسيا الوسطى، من مهامه الأساسية البحث في علوم اللغة العربية وتطويرها باعتماد برامج مختلفة في اللغة والأدب والثقافة والتاريخ، يتعرف من خلاله الطلاّب تدريجياً على العربية وآدابها وتراثها الثقافي..

تأهبت لأقبض على هذه اللحظة الهاربة من الزمن، وأرسلت للمشرفين بجامعة جواهرلال نهرو ملخّصا عن الموضوع، حظي بالقبول (انظر ملخص البحث في الملحق) ،

هكذا كان للرحلة الهندية أن تبدأ بحلم، والحلم قصر أو طال، هو حكاية لها نقطة بداية..!!

و هكذا عندما فكّرت في الذهاب إلى الهند لم أنتظر التأشيرة على جواز السفر، لأنني سافرت بخيالي إلى الهند منذ أن بدأ الحلم...

في السفارة الهندية

في سفارة الهند قرب حي مالكي بأعالي مدينة الجزائر العاصمة، كانت الخطوة الأولى، ومعها المعضلة الأولى في ملف التأشيرة، إنها الاستمارة التقنية التي لا يمكن ملأ صفحاتها إلّا إذا شاب لك من شعر رأسك عدد الأيام التي سيمنحونها لك للبقاء في الهند، إجراءات الحصول عليها معقّدة و متعبة، رغم التطور التكنولوجي المتدفّق في عالمنا اليوم، فإنه لم يجد منفذا إلى حلّ لغز استمارة التأشيرة الرقمية بالسفارة الهندية في الجزائر، وصدق الشاعرحين قال:

- " إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال" ومع الهند يصحّ القول " إن مزارها بعيد بعيد، ومعه أهوال وأهوال..!

لم يفلح موظّف وكالة سياحية في ذلك ، وكذلك صاحب مكتبة خاصة، وجهتنا نحوه موظفة في السفارة، إلاّ بعد محاولات عدّة أيام، وكدت أن أتراجع في السعي للحصول عليها...

أسئلة كثيرة ودقيقة عليك الإجابة عنها في ملف التأشيرة ، وكأنك ذاهب للترشح لرئاسة دولة الهند، ومن الغرابة أن تجد سؤالا في الاستمارة يقول:

- هل أصولك من باكستان ؟

الجواب بنعم يعني رفض الطلب، لأن وجودك هناك يعدّ رقما مضافا لعدد المسلمين المطالبين بحقّهم في الجنسية...

ومن الغريب أن يشترط في ملف التأشيرة بالنسبة للمدعوين إلى الملتقى العلمي وثائق معقّدة لا تطلب في ملف السيّاح العاديين، وهذا ما جعلني أختار خانة السياحة ... وأخيرا حصّلنا علي التأشيرة ..

ألم يقل شاعر العرب أبو الطيب المتنبي:

" وإذا كانت النفوس كبارا...

تعبت في مرادها الأجسام" ؟!

على الطائـــــرة

انطلقت بنا الطائرة عصر 24 فبراير2020م من مطار هواري بومدين بالجزائر في اتجاه مطار الدوحة بقطر، وكانت برفقتي أم البنين الروائية عائشة بنور وهي التي لازمتني جلّ رحلاتي إلى الخارج، فأضفت بوجودها بعدا مؤنثا بتاء التأنيث، الذي يضفى حضورا مفعما بطعم المؤانسة والاطمئنان، "فالمكان الذي لا يؤنث لا يعوّل عليه" كما قال الشيخ ابن عربي وكذلك الرحلة...

ولأن الحصار كان ساريا على دولة قطر من قبل جيرانها ، اضطرّت الطائرة القطرية إلى التحليق بنا ثلثي الليل في سماء الفتنة في مسار منعرج شبه دائري، انطلاقا من الجزائر عبر البحر الأبيض المتوسط إلى أجواء دمشق الشام وحلب ثم إلى البصرة و النجف ومنها إلى بحر الخليج، لتصل إلى مدينة الدوحة.

هنا الدوحـــــة

الساعة الثانية بعد منتصف الليل من يوم 25 فبراير 2020 م، نحن في مطار الدوحة الدولي... جنسيات مختلفة من شرق الكرة الأرضية وغربها توقفت هنا، كان موعدها في محطّة الانتظار بالدوحة، تلتقي هناك لتمتطى الطائرة نحو دلهي، كان مطار الدوحة نقطة التقاء المسافرين في كلّ الاتجاهات و المسارات...

في قاعة الركوب كنّا ننتظر قدوم الطائرة بشغف ونتساءل: كيف تستقبلنا الهند أم العجائب، هل ترقص النجوم في السماء، وهل تغرس الأرض ورودا لهذا اليوم، ونحن ندخلها أوّل مرة. ؟!

حينما صعدنا الطائرة، كانت وجوه الأجنبيات مقنّعة بما يشبه النقاب تفاديا لوباء "كورونا كوفيد 19" الذي بدأ ينتشر بين شعوب العالم كالنّار في الهشيم... بينما رأيت بعض المسلمات سافرات المُحيّا، وهكذا أقلعت بنا الطائرة في جو عجائبي داخلها لا ترى من أغلب الوجوه إلاّ العيون المحلقة في أجواء المكان... سبحان مقلب الأحوال!!

على متن الطائرة كنت أحلم بالغد الجديد في بلاد الهند،واستعجل طلوع الشمس كطفل ليلة العيد، وتذكّرت عندما كنت صغيرا أنتظر صباح العيد لألبس حذائي الجديد الذي اشتراه لي أبي من مدينة بوفاريك .. وبدأ خيالي يحلّق في أحلام يقظة، فتذكرت بعض عظماء شبه القارة الهندية، وتساءلت:

ماذا لو أجد في استقبالي عشّاق الشاعر طاغور الذي تربطني به علاقة إعجاب!! ألم أشتر يوما علبة شريط كاسيت صوتية لأشعاره من بيروت أثناء سفري في مهمة رسمية للإطلاع على مدى تطور التكنولوجيات الحديثة في المدارس العربية سنة 2002م، لنقل التجربة إلى المدارس الجزائرية ؟! أو قد أجد محبّي الشاعر محمد إقبال،ولما لا أجدهم و قد فازت روايتي "الغرباء" في الجزائر بجائزة أولى تحمل اسمه عام 1992م..!

ربما أجد طلبة الشيخ المودودي مرحّبين بي، إذا حدث هذا سأخبرهم بكتابه " الحجاب" الذي رافقني يوما كاملا وأنا رئيس مركز انتخابات برلمانية بسيدي امحمد في بئرالتوتة (الجزائر) عام 1982م .

ماذا لو أجد أحفاد المهاتما غاندي في استقبالي ؟! هل يعلمون بأنني أتناول الطعام بأصابعي مثله، ولا أستعمل

الشوكة إلّا نادرا؟ وأحكي كلّ مرّة قصّته للأصدقاء، عندما جلس (غاندي) يوما في محفل بآخر القاعة، ولما جاءه المنظّمون قائلين له:

- تفضّل يا زعيم، مكانك في الصف الأول.

أجابهم بمقولته الشهيرة:

- الصف الأول حيث يجلس غاندي.

في مطار نيودلهي

عدت من أحلامي إلى الواقع... مازلنا في الأجواء، مطبّات جوّية بين السحب، الطائرة تضطرب متأرجحة، الهلع ينتاب الركاب، خشيت أن تكون نهايتنا في تلك اللحظات .

اقتربنا من نيودلهي مع تباشير الصباح، كانت السحب تكسو السماء وضباب خفيف يفترش وجه المكان،أخذتني سِنة من النعاس ولم انتبه إلاّ و الطائرة تلامس الأرض بقوّة، وكأنها ترتطم بها ارتطاما ، أحسست أن الطائرة قد تحطّمت فاستيقظت مذعورا أردّد الشهادة، وحالي كالذي فرّ إلى الهند هربا من الموت وإذ به يجد ملك الموت أمامه ينتظره على مدرّج الطائرة، ثم التفت يمينا و يسارا لأرى الناس جالسين على مقاعدهم في اطمئنان تام، وكأنّ شيئا لم يحدث، وتلك الحقيقة، وكانت "الهدية" الأولى ..

مررنا أمام شبابيك الشرطة الحدودية وكأننا نمرّ على الصراط يوم الدين،خشية عدم المصادقة والموافقة على دخولنا الأراضي الهندية، فقد تداولوا على جوازي سفرنا في أكثر من مكتب، كنت أرقب عيونهم البنيّة وهي تدقّق النظر في ملامحنا مرّة وفي الوثائق مرات، شرطة الحدود لا مجال لها

للخطأ أو التعاطف، وقد يعيدونك من حيث أتيت لأي سبب ولو كان بسيطا، حبست أنفاسي في انتظار قرارهم الأخير الذي تشاوروا فيه ..

وأخيرا تنفسنا الصعداء بعد الموافقة،كما سررنا لاجتيازنا حاجزا آخر هو حاجز التواصل اللغوي، إذ كان علينا أن نودّع اللغة العربية والأمازيغية والفرنسية داخل حدود الجزائر، لا أحد يفهمك إذا تحدثت بها هناك، وحتى في بعض العواصم العربية مثل الدوحة ودبي، حيث من لا يعرف الانجليزية يصبح كالأبكم، و ما أكثرهم في بلادي...

وأخيرا، ها نحن في بهو مطار نيودلهي، يا للروعة! هل يبدأ الآن "كرنفال"العجائب؟ هكذا كنت أظنّ أنني سأكتشف عالما خرافيا ساحرا كطفل يدخل (سيرك عمّار) أوّل مرة...

وجدنا صفا من المستقبلين كلّ واحد يحمل لائحة كتبت عليهم اسم الوافد المنتظر...

تمعّنت أكثر من مرّة في اللوائح فلم أجد اسمي، ، لم ينتظرني أحد من هؤلاء حتى الأستاذ محبوب عالم ممثل جامعة جواهرلال نهرو لم ينتظرني كما وعدني... عرفت بعد ذلك سبب غيابه و هو تغييري سبب السفر إلى الهند في ملف طلب التأشيرة، حيث صار للسياحة وليس لحضور المؤتمر،

نظرا لكثرة وثائق ملف التأشيرة الذي يخصّ الندوات والملتقيات، لذلك فإن وجوده بالمطار لاستقبالي لا مبرّر له وقد يسأل عنه ...

لكن بالنسبة لي كان الأستاذ محبوب نقطة الضوء الوحيدة التي أرى من خلالها هذا العالم الجديد المجهول ، حيث كنا على تواصل منذ شهور...

توجّهنا نحو محطة "الطاكسي" الحكومية، كان أول موقف وقعت فيه، مربك وطريف، عندما وضع السائق الحقائب في الصندوق الخلفي للسيارة، سبقته إلى مقعده وجلست، حيث أنهم يسوقون السيارات على الطريقة البريطانية، كان مقعده على يمين السيارة.

وقف السائق خارج السيارة يتفرج ضاحكا ومن معه، وبعد حين انتبهت أن أمامي يوجد مقود السيارة، ونظرت إلى يساري فإذا المكان شاغر، نزلت ضاحكا من هذا الموقف الساخر، وانتقلت إلى الجانب الآخر حيث يجلس الركّاب، ولسان حالي يردّد: هذه البداية ومازال مازال... على منوال أغنية رابح درياسة...

الخطوات الأولى في نيودلهي

ها نحن في نيودلهي عاصمة الهند، بلد المليار والأربع مائة مليون نسمة، موطن الزعيم غاندي و الشاعر الكبير طاغور والشاعر الإسلامي الفيلسوف محمد إقبال،ومحمد علي جوهر وأبو الكلام زاد و مجلتي الهلال والبلاغ، في هذا الصباح الهندي المضمّخ بعبق الحضارة و توابل التاريخ وحكايات الإنسان القديم، والمظاهرالفلكورية المتنوعة، وما بقي من الزمن القديم ،كأن كلّ خطوة نمشيها تلامس أثرا، وكلّ نظرة إلى تحفة تلد فكرة تتضح بالأسئلة الباحثة في التاريخ والحضارة ...

توقفت سيارة الطاكسي أمام باب الفندق الذي كنّا قد قدمنا عنوانه إلى السائق، حملنا حقائبنا من السيارة ودخلنا، كان فندقا عتيقا يديره هندوس..

بعد استراحة قصيرة في الغرفة، لم نستطع صبرا،دفعتنا رغبة شديدة لاكتشاف المدينة، فخرجت وعائشة نكتشف الحي المجاور للفندق،ركبنا المجهول في هذا العالم الجديد، فضولنا كبير، ننظر إلى كل مكان واتجاه، نبحث عن الدهشة في كل خطوة، في كل ظاهرة تنسينا إرهاق السفر،

نتفرس الوجوه و نحملق في واجهة المحلات، نكتشف الشوارع و المطاعم القليلة، نتمعن في المأكولات و أنواعها، في طريقة الكلام في سلوكات الناس، كنّا كمن ينزل كوكبا آخر فيرى مخلوقات غريبة، لأن سمعة الهند وصورة هذا البلد والأساطير التي سمعناها وقرأناها حوله شكّلت في مخيلتنا صورا عجيبة وخرافية لا تصدّق، نحن اليوم في وسط هذه الحالة الأسطورية المبهرة ، كيف نتعامل معها؟!

عندما تطأ أرض الهند يفتح لك كتاب ألف ليلة وليلة في صفحته الأولى، وتبدأ تكتشف أسرار المكان وعجائب الإنسان، في هذا الدفتر السحري تمسك بحبل التأمل في الظواهر التي تصادفك على حين غرّة، لكن ما تخشاه أن تضيّع تذكرة العودة في الليلة الأخيرة بعد الألف، أو يضيع عقلك فتظلّ هناك عجبا مضافا إلى العجائب الأخرى!

أول ما اكتشفنا في الشوارع كثرة سيارات الأجرة الصغيرة الصفراء، التي تسير على ثلاث عجلات و اسمها "توك توك"، دخلنا المحلات في احتشام، وكانت تخوننا اللغة أحيانا عندما يعجز اللسان، لأن الذي لا يعرف اللغة الانجليزية أو الهندية هناك لا يستطيع التفاعل مع الآخرين، يعيش كالصم البكم بين قوم يتحركون كالنمل

ويتكلمون بطريقة غريبة، لا ترى إلاّ شفاههم مضطربة بسرعة مدهشة..!!

أعجبني منظر كلب في الشارع لابسا بذلة أنيقة تقيه برد الشتاء، ولا يظهر من جسمه إلاّ الرأس، يجول مزهوا كأنه في عرس الطبيعة، أو عرس الذيب الذي يظهرفيه قوس قزح في السماء بين السحب الممطرة المشمسة.

في هذه الأيام من نهاية شهر فبراير2020م، كانت بعض أحياء العاصمة نيودلهي ملتهبة بسبب الاحتجاجات التي يقوم بها مسلمو الهند ضد قانون الجنسية الذي أصدره رئيس الدولة قائد الحزب اليميني، القانون أحدث موجة من الغضب والاحتجاجات طول البلاد وعرضها،لأنه أثارمخاوف شديدة في قلوب الأقلية المسلمة، التي تتجاوز نسبتُها 15 % من مجموع السكان، وملخّصه: يحرم كلّ مسلم من الجنسية الهندية، إذا لم يتمكّن من إثباتها خلال إجراء عمليات التأكد، ويطرد من البلاد أو يلقى في مراكز الإيقاف، وهذا يعنى أن عدد المسلمين يتضاءل مستقبلا في الهند إلى درجة الذوبان، وبالتالي يتم إقصاؤهم تدريجيا من كلّ الاستحقاقات الانتخابية والمناصب العليا في الدولة.

ليلــة مع الأشبـــاح

عدنا إلى الفندق الهندوسي حيث قضينا الليلة الأولى، كانت ليلة مع الأشباح وكأنّنا نشارك في تمثيل فيلم حول حياة الزعيم غاندي ومقاومته للإنجليز، في مكتب الاستقبال وجوه وهياكل بشرية مكسوة بالجلد، أذاب الزمان شحمها وأكلت المحن لحمها،تبدو كأنها رفاة خرجت من لحودها....خشيت في البداية من صعوبة التواصل معهم الفندق،وقلت في نفسي: إذا كانت ألسنة الهند تتحدث بأكثر من 300 لغة وتعجز عن فهم منطقي،سأستعين بلغة الإشارة،ربّما تودي الغرض.

وافقت على الإقامة بهذا الفندق الذي اقترحه أحد المنظمين للمؤتمر لأنني لم أتعرف على غيره، في انتظار مجيء الصباح حيث نلتقي في المؤتمر الدولي بالمنظّمين، وأهل دلهي أدرى بفنادقها، وكان لنا ذلك في يوم الغد، إذ أشار علينا أحد المشرفين على الملتقى بفندق آخر اسمه "ساج" الذي أقمنا فيه حتى نهاية الرحلة.

ومن المفارقة أن مدير هذا الفندق "ساج" اسمه محمد، وحسب ما علمت بأنه المسلم الوحيد الذي يدير فندقا في

نيودلهي مرتبا في ثلاثة نجوم أو أكثر، وهذا له أكثرمن معنى ودلالة، وهناك العديد من المطاعم والفنادق الصغيرة التي يديرها المسلمون في هذه العاصمة.

عليك أولا أن تكيّف ساعتك البيولوجية مع فارق الزمن في التوقيت بين الجزائروالهند الذي يقارب خمس ساعات ، من حسن حظ الديوك أنها لا تسافر لأن توقيت صياحها سيختل، وقد تصاب بالجنون.

عندما تكتشف أن شوارع الهند خالية من الأطفال والنساء الحوامل و كأنها مدينة في سن اليأس، تتذّكر مدننا التي ينبت فيها الصغار كلّ صباح مثل الزهور فيضيفون إلى الدنيا مع زقزقة العصافير بسمة جديدة... هي الحياة...

وما رأيت في الهند شرطيا أو حاجزا أمنيا أو شاهدت شخصا مدخنا أو أزمة في النقل،رغم عدد السكان الكبير الذي ينجب كل سنة خمسة عشر مليون طفل...

وتبحث عن مخبزة أو مقهى يجلس فيه الناس فلا تجدهما، فتقف تقديرا للمرأة الهندية التي تأكل الهند من كفّها، وتقف احتراما للرجل الهندي الذي لا يعرف الجلوس، لكن هل تستطيع نيودلهي الاستغناء عن المقاهي؟!

أخبرني صديق هندي بوجود المقاهي في الأحياء المكتظة بالسكان، تفتح في الصباح الباكر، يأتي الناس ويشترون ما

يحتاجونه وبعضهم يتناول الشاي فقط، وآخرون يتناولون الفطور،لا يجلسون إلاّ دقائق معدودة ثم يذهبون لأعمالهم، لكن في المساء يجلس الناس وخاصة الشباب لساعات، وهذا حسب المكان والزمان.. ولأن الشيء بالشيء يذكر كما يقال، فقد استحضرت هناك صورا لمدينة القيروان التونسية، حيث يتزاحم الناس في مقاهيها،ويجلسون داخلها وخارجها لساعات وساعات في أحاديث لا تنتهي.

في انتظار قدوم سيارة الجامعة لتحملك إلى المؤتمر تتوالى على فكرك عدّة أسئلة، أيّة حلّة هندسية ترتديها جامعة لال نهرو؟ ومن هذا جواهر لال نهرو الذي ترك بصمات في تاريخ الهند؟! فتتذكّر مؤتمر باندونغ عام 1955م حيث عقد مؤتمردول عدم الانحيازالذي صدح فيه صوت الثورة الجزائرية أوّل مرّة بحضوره ، وتعدّ مؤلفاته مثل: اكتشاف الهند (The Discovery of India) ، ولمحات من تاريخ العالم (Glimpses of World History)،وسيرته الذاتية، نحو الحرية (Toward Freedom)، كما تتذكّر أنديرا غاندي والرؤساء الذين مرّوا بهذا البلد العريق فأحدثوا توازنا بين الديانات و المذاهب و اللغات، وأسّسوا دولة قوّية، ثم تقارن ذلك بالهند اليوم وحال المسلمين ومعاناتهم من التمييز

والتهميش فتضطرب الأفكار في مخيلتك و تلعن السياسة ثم تصمت....

سارت السيارة بنا في شوارع المدينة قاصدة الجامعة حيث سيعقد المؤتمر الذي ينظّمه مركز الدراسات العربية والإفريقية بهذه الجامعة العريقة لمدة ثلاثة أيام.

ومن بين المخاوف التي كانت تعتريني و بصري يجول في واجهات المحلات خشيتي من الوقوع مغرما بسحرهذا البلد وعجائبه، فأمكث به طويلا ولن أعود إلى الجزائر!! فعلا مدينة نيودلهي مغارة العجائب وحديقة الغرائب، تدعوك إلى الاكتشاف، لا تتعبك في البحث عن مواطن الجمال إذ تجده ملاقيك، يُصادفك في اللغة و الحركة والسلوك والتصرفات و المعاملات وفي كل مكان.

في رحاب جامعة جواهرلال نهرو

في مدخل الجامعة التي تحمل اسمه والتي تأسست عام 1969م يستقبلك تمثال صغير للزعيم الهندي جواهرلال نهرو، وحول قدميه بساط من الورود .. استقبلنا أيضا هذا اليوم رئيس المؤتمرالأستاذ رضوان الرحمن رئيس قسم الدراسات العربية والإفريقية بالجامعة، والأساتذة: عبيد الرحمن، مجيب الرحمن، محمد قطب الدين،أختر عالم،الباحث بالمركزمحبوب عالم، حبيب الله خان رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة "الملية " الإسلامية، سعيد الرحمن رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عالية كولكاتا، د.محمد ادريس القاسمي الندوي من جامعة لكناؤ،اترابراديش، روح الأمين شيخ من جامعة حيدر أباد، ...وغيرهم.

جاؤوا من أغلب الجامعات الهندية من البنغال وحيدرآباد تسبقهم الابتسامات وعطر الكلمات ..

آه، ليتكم تعرفونهم وتألفون أرواحهم التي تلامس السماء!! مهما كان الوصف دقيقا فإنه لا يفيهم حقّهم.

والعجيب أن كثيرا منهم يحمل اسما مضافا لكلمة الرحمن، فكيف لا تشملهم عناية الرحمن؟! و كأن الآية الكريمة "وعباد الرحمن الذين يمشون في الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما" نزلت في حقّهم.

وكذلك تعرفت على الأساتذة المدعوين من خارج الهند: العراق ، سلطنة عمان، الأردن، السعودية، مصر، قطر، الإمارات ...

ما أجمل اللقاء حول مائدة الفكروالثقافة !..علاقات جديدة بنيت على الصفاء و البهاء، لكن لقاء أي شخص لأول مرّة يحدث حالة ارتباك مؤقّت، قد تتحوّل إلى بهجة تسرّك أو ذكرى تؤرقك كلّما استحضرتها مع مرور الزمن ..

المؤتمر الدولي

افتتح المؤتمر الدولي حول "تصوير الهند في الأدب العربي" يوم 26 فبراير 2020م بكلمات الترحاب من أسرة الجامعة ،ومن حضر من ممثلي السفارات العربية، وكان لكل متدخّل حصّة من الورد ، باقة يستلمها لكي يعيدها إلى مكانها عند الانصراف....

ثم بدأت الجلسات العلمية، وجاء دوري في الجلسة الثانية.. عطّرت مداخلتي في مستهلها بكلمات من شذى القلب، وقلت :

" قطعنا البراري والوهاد والجبال والبحار وجئناكم، لأنّنا نحبّكم ونحبّ من يحبكم، ينطبق علينا قول الشاعر لمّا قال لها :

- " أحبّك وأحبّ من يشبهك، أمرّ على الحجر القاسي ألثمه لأنه يشبهك" طبعا أنتم لا تشبهون الحجر لأنكم أهل الكرم ، فقد أكرمتمونا هذا الصباح بوجبتين دسمتين الأولى فكرية والثانية غذائية...

وبعد ، هل يكفي وقوف أحدنا ليقول لمعلمه: شكرا.. كي يعبّرله عن جميل عرفانه ؟!

اعتراف وفاء أم قراءة في صفحات الذاكرة، هذا الذي يجعل أحدنا يقطع الفيافي والبحار ويعبر الزمن والقارات، ليقول للجميع إن الهند كانت معلمته ؟. وهي الحاضرة في الوجدان العربي منذ القديم في الأسماء : هند بنت عتبة، وهند بنت النعمان زوجة الحجاج، و في الأمثلة أقوال لا حصر لها ، حتى اليوم نردّد في حديثنا للتعبير عن رفضنا لما يدعّيه الآخر من حجج واهية أو كلام مزيّف، فنقول: هذه أغنية هندية،وهذا فيلم هندي أوأسطورة هندية،وحتّى في النباتات نغرس الجوز الهندي والتين البري الشوكي ونسمّيه التين الهندي.

مدخل شدّت كلماته الأسماع لبقية مداخلتي، حول مقارنة تجربتي في الكتابة للأطفال بكتاب "كليلة ودمنة" ... وواصلت: هكذا بدأت حكايتي مع شبه القارّة الهندية، في المدرسة ومع نصوص كتاب القراءة وردت حكاية " الحمامة والثعلب و مالك الحزين" المستمدّة من حكايا "كليلة ودمنة " هذه الحكاية المشوّقة الجميلة، وما تحمله من دروس وعبر، كانت جسرا لمطالعة بقيّة الحكايات بشكل أو بآخر...

حظيت المداخلة باستحسان الحاضرين، لاسيّما الأساتذة الهنود الذين التفوا حولي في نهاية الجلسة، وتم تكريمي بدرع المؤتمر، كما حظيت بنشر صورة الاحتفاء بي من قبل صحيفة أردية مع مقال حول المؤتمر، واللغة الأردية من بين ثلاثة وعشرين لغة رسمية في الهند ،وهي من بين 11 لغة رسمية تكتب بالعربية،وفي الوقت نفسه لسان أنحاء الهند بأغانيه وأفلامه، يتحدث بها 2 مليار شخص موزعون بين الهند وباكستان وبنغلاداش ..الخ، 40 % من مخزونها اللفظي عربي، وكلمة الأردية تعني معسكر وهي كلمة تركية وتعني اصطلاحا الجيش الإسلامي الذي كان مكونا من عناصر عربية وهندية وتركية وأفغانية، بينما يتكلم الهندوس الهندية القديمة المتطورة لاظهار الفرق بينهم وبين المسلمين.

وبدأت رحلة التعارف الحقيقية مع الأساتذة الهنود التي تحوّلت إلى أخوة متينة، وصداقة عميقة قد تمتد إلى آخر العمر، وهكذا كسبت مزيدا من الأصدقاء مصداقا للمثل الهندي القائل: "عدو واحد هذا كثير، مئة صديق هذا لا يكفي"، كما تدخّلت عائشة في جلسة أخرى مُناقِشة ومقدِّمة بعض أعمالها الروائية التي اكتشفها الهنود أول مرّة، فأظهروا اهتمامهم الكبير بالإبداع العربي.

الجلسة العلمية ..

رئاسة بنكهة جزائرية

في مساء اليوم الأول من المؤتمر شرّفني المنظمون برئاسة الجلسة الثالثة، بمساعدة المنسق الأستاذ الباحث أختر عالم، ولتلطيف جو الجلسة قلت لهم: إن هذا الكرسي،أقصد منصب الرئاسة يثير عندنا في العالم العربي إشكالا كبيرا فالرؤساء لا يغادرونه إلاّ بالموت، وأكمل رئيس المؤتمر: أو الثورات ...

وقلت من حسن حظكم أن الجلسة هذه جاءت في آخر النهار وإلاّ ستظل يوما كاملا، ضحك الجميع و سارت الجلسة بأربع محاضرات [1] في جو من الإنصات والمناقشات، وكنت

---

[1]- عبد الكريم باحث سابق، الجامعة "الملية" الإسلامية نيودلهي عنوان مداخلته: "الهند كما رآها العلامة_تقي الدين الهلالي المغربي"،روح الأمين شيخ باحث،جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية حيدر آباد،عنوان مداخلته: "تصوير العلاقات الهندية العربية قبل ظهور الإسلام في ضوء أشعار العصرالجاهلي"،حسناء مبروك باحثة،كلية الآداب الجديدة المغرب،عنوان مداخلتها:"صورةالهند في الترجمةالعربية"د.كاظم محراث من جامعة واسط العراق،عنوان مداخلته: " إعجاب العرب بحضارة الهند من الشعر الجاهلي والمدونات الأدبية".

أوظّف سلطتي في رئاسة الجلسة من حين لآخر، لأتدخل موجّها أو معلقا، بحضورأساتذة باحثين استحسنوا هذه الجلسة فكرّموني ثانية، ولم يفارقوني منذ ذلك الوقت، وأصبح بعض الحاضرين من الهنود يمازحني عند اللقاء بلقب "الرئيس".

ما أصعب الفراق..! بعد ثلاثة أيام جاءت لحظة اختتام الملتقى، مساء 2020.02.28م، والذي انتهى كما بدأ بالمودة والعرفان، هكذا تجرى المقادير،لولا الفراق ما كان اللقاء.

الرحــلة الجامعيــة

في اليوم الموالي لاختتام المؤتمر أتحفتنا جامعة لال نهرو برحلة سياحية إلى أحياء مدينة نيودلهي، حيث المعالم الأثرية مثل "قطب منار"، وهو قطب سياحي بامتياز، سمي نسبة إلى قطب الدين أيبك أول حاكم من المماليك على سلطنة دلهي، في أول دولة مستقلة بالهند، كان قائدا ماهرا وحاكما مسلما عادلا، بني هذا المسجد أوالمعلم الأثري التاريخي السياحي بالقرب من دلهي، وتعتبر منارته التي يصل ارتفاعها إلى 250 قدما الأطول من نوعها في الهند، وثاني أطول المنارات في تاريخ العالم الإسلامي بعد منارة " الخيرالدا" في إشبيلية، أدرجته منظمة اليونسكو في قائمة التراث العالمي، وتوجد بقربها معالم أخرى، هي أطلال حضارة سادت ثم بادت.

أن تمشي على آثار الأباطرة هذا لايجعلك إمبراطورا، لكنه يسمح لك باكتشاف مجالس حكمهم ومواقع

عزّتهم،وأماكن نومهم، تعرف مدى تبصّرهم وحكمتهم وذكائهم ودهائهم ... و كأنك تعيش معهم .

كان دليلنا غارقا في الشرح كمعلّم قديم، بينما أنظارنا كانت تمسح الآثار، كان يحب التفاصيل مثل حكواتي دمشقي، و كنّا نحبّ الاختصار، لذلك تفرّقنا عنه و انشغلنا بالتقاط الصور التذكارية الفردية والجماعية، فقد يفضّل المرء أحيانا قراءة التاريخ وأحداثه بخياله، وتحلو له استنتاجاته الشخصية عندما يستنطق المنحوتات ويحاور صور التماثيل و يسائل الأمكنة ... بعد جولة تعرفنا فيها على بقية الآثار ودّعنا " قطب منار"على مهل مودّعين المكان بنظرات امتدّت إلى القرون الغابرة...ثم انتقلنا إلى معلم آخر من المدينة..

ضريح همايون

ضريح الإمبراطور المغولي نصير الدين همايون في ناحية أخرى من مدينة دلهي.. صمتا ... نحن في حضرة الكبار..!

هو قطب سياحي يزوره عشاق الآثار من أنحاء العالم، منهم شخصيات معروفة مثل باراك أوباما رئيس الولايات المتحدة

الأسبق.. بعد وفاة همايون بتسع سنوات، أمرت زوجة الإمبراطور "حميده بانو بيجوم" بناء هذا الضريح عام 1562م،هي المحبة تغرس في القلوب صروحا أثناء الحياة، لتثبت معالم على الأرض بعد الرحيل .

الضريح يتوسط أولى الحدائق من نوعها في شرق آسيا...مزهرة طوال العام، ماأروع المقابر التي يتنعم ساكنوها بالحدائق و ما أتعس المدن الإسمنتية التي يُحرم ساكنوها من رؤية الربيع كل عام...!!

كانت عدسة " كاميرا " الأستاذ البراء صفوان عبد الغنى من جامعة الأزهر بالقاهرة تلتقط صور الآثار من مختلف النواحي، وكأنه يفتش عن فرعون محنّط في نيودلهي، وكنت كل مرّة أمازحه كي ينضح بعطر كلماته الراقية..

بوابة الهند ... المفتاح والعنوان

بعد هذه الجولة الجامعية شرعنا في رحلاتنا الخاصة،نتلذذ طعم الاكتشاف الحرّ وشغف المغامرة، وكانت البداية من بوابة الهند، لندخل البيوت من أبوابها، هذه البناية الضخمة التي تشبه قوس النصر، إذا زرتها تشعر من أول نظرة بأنها تفتح لك قلبها، ثم تمنحك مفتاح العاصمة نيودلهي بل الهند كلّها ..إنها المعلم الوطني وأصله صرح حربي، وهو تابع للجيش لحد الآن، كان أمامه تمثال جورج الخامس قبل نقله إلى إحدى الحدائق العامّة بعد استقلال البلاد عن الاحتلال البريطاني، جورج (1865م- 1936م) حفيد الملكة فيكتوريا، لم يعد ملك بريطانيا العظمى وإيرلندا، امبراطور الهند، وبوابة الهند يحيط بها أبناؤها بعيدا عن التماثيل والرموز الأجنبية ..

تقع بوابة الهند في العاصمة نيودلهي، وصلنا المكان قبل الغروب بقليل، كان الزوّار والباعة يملؤون الحياة حركة و دبيبا، الشمس تودّع الجميع وهم يتداولون على الموقع المناسب للالتقاط صور معها وهي في حضن القوس،

الذي دام بناؤه عشر سنوات، كبر فيها كطفل ميلاده عام 1931م، المصادف لميلاد أمي العزيزة بوابة حياتي..

يقف هذا المعلم شامخا شموخ الجنود الذين يحرسونه بل يحرسون الأزهار اليافعة التي تحيط بالمكان، مقام الجندي المجهول الذي يمثّل تسعين ألف مقاتل من الجيش البريطاني الهندي الذين قضوا نحبهم في الحرب العالمية الأولى والحروب الأفغانية من أجل الإمبراطور في الهند.

بعد الغروب بقليل ودّعنا بوابة الهند محمّلين ببعض التحف الرمزية للذكرى والتذكار، ثم عدنا إلى تجمع وسائل النقل (توك توك) حيث احتار الجميع في عنوان فندقنا ، ولولا تدخل محرك البحث (قوقل) لقضينا ليلتنا هناك في الشارع ، حيث لا تنفعنا البوابة ولا مفتاح الهند...

توك...توك حكاية أخرى

"توك توك" هكذا تسمى وأصل هذه الكلمة سنهالية من سريلانكا، وتوك توك تعرف في الهند باسم أوتو أو أوتوريكشا أو تيمبو .. وهي درّاجة نارية في شكل عربة نقل أو طاكسي، وسيلة نقل بسيطة حلّت مشاكل كثيرة لمئات الملايين من سكان الهند، تسير كالكريات الحمراء في الدورة الدموية لجسم الهند،تساهم في اقتصاد الهند وانخفاض البطالة والنقل والمواصلات ...الخ.

كانت لي مع "توك توك" حكاية، موقف مريك تعرّضت له بعد أن شعرت بابتزاز سائق العربة (توك توك) الذي نقلنا على مسافة قصيرة لا يتعدى ثمنها 100 روبية، لكنه بعد الوصول استلم مني ورقة نقدية بخمسة أضعاف ورفض إعادة الفرق ، ثم أقلع بمركبته، هنا حاولت أن أجرب ما أبقاه الدهر من قوّة في عضلاتي، فأمسكت بأحد أعمدتها لإيقافها، لكنه ضغط على دواسة السرعة بشدّة فانطلقت "توك توك"، وكادت أن تجرّني خلفها، إنها مجازفة حقّا لكنها ذكرى

ضاحكة... وكان ذلك درسا هنديا لي كي استعدّ مرّة أخرى لكل الاحتمالات، وتذكّرت حالة ابتزاز مشابهة حدثت لي في اسطنبول مع سائق طاكسي، لم أفكّر في تقديم شكوى ضد هذا الاحتيال مسايرة ومجاراة للهندي القائل :

"ينبغي على الرجل الفاضل أن يتشبه بشجرة الصندل wood sandal ، التي عندما تقطع تعطّر الفأس التي تضربها".

المتحف الوطني بنيودلهي

في الصباح الباكر ركبنا عربة (توك - توك) وقصدنا المتحف الوطني بنيودلهي،وصلنا قبل موعد الافتتاح، دخلنا ساحة المتحف الوطني دون مراقبة، ربما ظن الحارس أننا موظفون في المتحف، وبعد جولة في ساحة المتحف التي لا تخلو من تحف خرجنا نجول في الحي المجاور له، حيث الشوارع واسعة مزينة بنباتات وزهور، وحدائق غناء يفوح منها شذى الربيع قبل الأوان، وتزيّنها نظافة المكان التي تسهر عليها المرأة الهندية الرشيقة .

النظافة في نيودلهي وأعني الأحياء التي رأيتها ظاهرة تدعو للتنويه... لا قمامة ولا أكياس بلاستيكية ولا شاحنات نظافة، الآداب العامة في الهند فيها محترمة في المظهر والمعاملة وسلوك الشباب المراهق، لا خمور ولا مجون..كأنها مدينة جديدة تنتظر التدشين، وهذا لا يعني الأحياء الهامشية التي لم يسعني الوقت كي أزورها ..

عند الساعة العاشرة... كنّا الأوائل أمام باب المتحف..استقبلتنا تماثيل الأوثان عبر العصور والأزمنة،وهي

تلخّص مسيرة المعتقدات من العصور الغابرة إلى اليوم، وتختزل مأساة عقل الإنسان الذي يصنع آلهته بيده ثم يعبدها ، وكم من إله بشري يصنعه العبيد على مرّ الأيام !

عندما تجول في أروقة المتحف بين هذه الأصنام، تراودك فكرة بأنك أيضا تمثال، لا يختلف عن هذه التماثيل الجامدة إلاّ بالحركة، وتسأل نفسك ما جدوى الحياة و ما قيمة هذه النصب والتماثيل المعبودة، المنحوتة لأشخاص و حيوانات، ولو اجتمع سكان الهند والسند والعالم الأصفر و الأشقر والأسود و عبدوها طوال الدهر لايمكنهم بث الحياة فيها ، ، هيهات ؟!

لمّا رأيت الهندوس يضعون تماثيلهم كلّها داخل المتحف رغم أنها محتشمة، تذكرت تمثال عين الفوارة العاري وسط مدينة سطيف، الذي يرفض دخول المتحف رغم أنف الكثير !! لاعجب في ذلك فالجزائر أيضا بلد المعجزات،هكذا قالوا وذاك دليل !

المسجد الجامع...وعيون العالم

سمعنا عنه كثيرا فازداد شوقنا لرؤيته، المسجد الجامع أو مسجد "جهان نما" أكبرمسجد في الهند بل آسيا كلّها، أحد المعالم والآثارالإسلامية والأقطاب السياحية الهامّة في الهند، يقع قرب شارع مزدحم ، بناه الإمبراطور المغولي شاه جاهان عام 1656م في دلهي، ساحته تستوعب25000 شخص من المصلّين، له ثلاثة أبواب يتوسطها مكان مخصّص للوضوء، هو قبلة المسلمين في بلد أكثره هندوس، يجتمعون فيه يصلّون و يقرؤون القرآن، و يؤدون صلاة التروايح في شهر رمضان، حيث تجتمع العائلات لتناول الفطور و السحور، أصبح اليوم قطبا سياحيا عالميا يقصده السيّاح الأجانب، يلِجّون إلى ساحته من مدخل خلفي حيث حظيرة الحافلات، فترى السائحات من بلدان العالم يجُلن فيه كالفراشات باللباس المزكرش الخاص بحرمة المسجد .

بعد التجوال في أرجائه خرجنا إلى سوق الملابس بالقرب منه، أغلب تجّاره مسلمون، تسير في أطرافه فترى أنواع الأقمشة والملابس الهندية و لا تنس أن تشترى منه هدية ، أو تتذوق من أطباق الطبخ الهندي المعروضة حوله.... كما توجد أسواق

كثيرة في جوار "المسجد الجامع" منها " مينا بازار" و"تشاندني تشوك" و"صدر بازار" وكلمة بازار معناها سوق مغطّى.
ثم قصدنا الشارع الكبير وركبنا " توك.. توك" وتوجّهنا إلى معلم آخر، إلى الحصن الأحمر غير بعيد عن المسجد الجامع ، نستنطق الآثار ونبحثُ عن ملامح الأمجاد.

الحصن الأحمر أو "لال قلعه "

الحصن الأحمر أو قلعة سرخ ، أوقلعة دلهي أو "لال قلعه" ومعناها الحمراء، وفي الأوساط العربية الهندية تكتب القلعة الحمراء ، تعدّدت الأسماء والتحفة واحدة، إنها إحدى روائع الحضارة الإسلامية في الهند، حيث كان موعدنا مع ذاكرة المكان، قلعة المجد التي شرع الإمبراطور المغولي المسلم شاه جهان في تشييدها عام 1638م، وبعد عشر سنوات أكمل إعمارها..

مظهرالقلعة الخارجي مهيب لفخامة واجهته،القرميد الأحمر يغطّي السطوح والقلب الأخضرفي الساحات، قبل الدخول إلى القلعة عليك أن تحضر التذاكر على مسافة بعيدة عن الباب الرئيسي .

خرجنا من القلعة الحمراء أوالحصن الأحمر، والإرهاق قد بدأ ينساب فينا،كأنها خيبة مشتاق بعد أن وجدنا القلعة خاوية عدا بنايات كبيرة متباعدة، وأغلبها مغلق ،كأنه في حداد حزنا على أيامه الجميلة في عصوره الأولى.

ذاكرة القلعة لا تنسى..وهي تسجل بمرارة همجية قوات الجيش البريطاني التي اتّخذتها كمعسكر ، بعدما نفت صاحبها الإمبراطور محمد بهادرشاه ظفر إلى رانغون عاصمة ميانمار، فأنهت عهده عام 1857م.

حديقة مُغولي الرئاسية

في غرناطة قال صاحب البيت لزوجته التي ردّت سائلا ضريرا: "أعطه ما يحتاجه ... ما أتعس أن تكون أعمى في غرناطة " .

استحضرت هذه المقولة وأنا أجول في حديقة الرئيس الهندي (حديقة مُغل أو مُغولي Mughal Garden) التي تتوسط نيودلهي ، من التعاسة أن تكون أعمى في حديقة الرئيس، والتي يحظى بها الجمهور شهرا واحدا فقط في السنة، و تظل بقية الشهور مهيأة لرئيس الهند وضيوفه فقط...فهي لصيقة بالقصر الرئاسي، شذى الأزهار يستنشقه موظفو الرئاسة طوال العام ، ويصل حتى مكتب رئيس البلاد...

و شذى العطور الفواحة يسابق وروده إلى استقبالك في مدخل الحديقة، كما يستقبلك رذاذ الماء من النافورات التي تدفع الماء في الأجواء، حتى تخال السماء شلالا متدفقا على أنغام موسيقى عذبة من الفلكلور الهندي ...

و يبهرك جمال حديقة الورود الكبرى، المشكّلة من دوائر وردية، كل دائرة لها لون معيّن أصفر، أحمر، أبيض... إلخ، كأنها أقواس قزح أو عجلة ضخمة مزينة بالألوان المختلفة...

في هذه الحديقة رأيت لأول مرّة أطفال الهند في مختلف الأعمار أفواجا أفواجا، في لباس موحّد مميّز لكلّ فوج ، هذه البراعم المتحركة ترى في وجوهها المستقبل القادم، و بفراسة بسيطة تكتشف في ملامحهم الباحث والفنان والممثل والسياسي ..وغيرهم، التقطنا صورا وسار كلّ منّا إلى غايته، هل يتذكرونني عندما يكبرون؟! أكيد ..لأن ذاكرة الهندي جديرة بأن تذكّر الفيل ما نسيه و هو المعروف بقوة الذاكرة...وترى في حديقة الرئيس أيضا الناس مبتهجين، منشغلين بالتقاط الصور التذكارية، وكلّ واحد يرى نفسه رئيسا ...لكن عندما تتذكر مايحدث من احتجاجات في عهد رئيس الوزراء (نارنيدرا مودي) تتحوّل في مدى بصرك الورود

أشواكا...فهل تمتدّ ديمقراطية الحدائق إلى الحقائق الخاصة بالعدالة بين مختلف القناعات والمعتقدات ؟!

حديقة لودي

الحديقة الرئاسية مُغولي بفخامتها لا تتسيك إحدى بدائع الهند، حديقة لودي (LODI GARDEN)، أهم وأشهر حدائق الهند ومزاراتها السياحية، تقع بين سوق خان (المعروفة بخان ماركيت) وقبر " صفدر جنغ "، قرب ميترو الأنفاق، وتضمّ قبر محمد شاه وقبر اسكندر بن بهلول اللودي الذي سميّت باسمه، وكذا تحفا معمارية من القرن الخامس عشر من قبل ملوك سلالة لودي، وفيها من نباتات نادرة فوّاحة بالعطور، وأشجار كبيرة معمرّة وطيورهندية نادرة، ومسطحات مائية بديعة، تتربع على مساحة تسعين هكتارا.

كان الوقت بعد الغروب ونحن نمرّ أمامها ، بدت لنا كغابة أسطورية تخفي كثيرامن أسرارالطبيعة والحياة، إنها آخر تحفة ختمنا بها زيارتنا لمعالم نيودلهي، فرافق حواسنا ذلك الجمال شذى الورود وألوانها ،وسكن صفحة الذاكرة إلى اليوم...

رحلة إلى "تاج محل"

ما أروع أن تجد نفسك في نيودلهي وقت السحر... منفى اختياري ممتع ومعتقل لذيذ.. !!

قبل شروق الشمس كنت وعائشة داخل سيارة طاكسي، كان قد اتّفق صاحب الفندق مع صاحبها ليلة البارحة على نقلنا إلى مدينة " آغرا" مقابل ثمن قدره 100 دولار (يعادل 7000 روبية هندية) ذهابا و إيابا...

في اليوم الثاني من المؤتمر الذي غبنا فيه حتى نوّفر لأنفسنا مزيدا من الوقت، لأن كل لحظة في الهند لها ثمنها، السفر مرهق و الحلم كبير، وقد يتحول في أية لحظة إلى وهم أو كابوس، وبالتالي ينبغي أن يستثمر زائرالهند كل ثانية في الاكتشاف، كغواص في أعماق البحر لا وقت له للراحة أو الكسل أو التردّد...

وأشرقت الشمس بنور ربّها وسبّح الكون، فاتضحت الرؤية، كانت أبصارنا متجهة إلى خارج السيارة، ترصد الظواهر وتبحث عن الاستثناء الذي يشبع فضولنا القوي، وأول ما أثار انتباهنا هو مكانة البقر و ما تحظى به من تقدير، لها أولوية المرورفي الشوارع والطرقات، وكأنها تحمل

بطاقة بيضاء أوتتمتّع بسلطة نظامية كالشرطي أو الدركي ! تقطع الطريق في أي وقت تشاء وعلى السيارات أن تتوقف، كما تنام في أي مكان فرادى وجماعات، ولا أحد يحرّك ساكنا.. هي سلطة البقر وفوضى البقر، وحرية البقر التي لم تعشها كثير من شعوب العالم، ولذا قلت في منشور فيسبوكي:

بقرة في الهند خير من أسد في بلادنا، لأن الأسود في بلادنا - حقيقة ومجازا - أسيرة و معتقلة في الحدائق أو السجون، والإنسان المقهور في الهند والبلدان الديكتاتورية يكاد يقول: ليتني بقرة... !!

سائق السيارة لا يحسن الحديث بالإنجليزية ولا يعرف غير الهندية ولغة الإشارات، ولذلك كنّا ثلاثة مجاهيل في معادلة واحدة في هذه الرحلة (السائق ، اللغة، نحن) ومن حسن الحظ أن مقصدنا كان معلوما وهو"تاج محل "، والصمت كان من ذهب حقّا، إذ منحنا فرصة التأمل طوال الطريق وفق تجليات صوفية ترافقها موسيقى هندية عذبة تنساب في أعماق الوجدان، أنينها رواية حزينة تلّخص تاريخ الإنسانية في هذا الفضاء الأسطوري من العالم ،عند سماعها من مذياع السيارة وعيناك تجول في حقول المزروعات، تعرف قيمة الحياة ومعنى الوجود...

و امتد بصرنا إلى الحقول المبتهجة بالنشاط اليدوي الذي تقوم به المرأة الفلاّحة ذات الشعر المخضب بالحناء أو المصبوغ بلون الزعفران، والملتفّة بلباسها التقليدي الهندي الأصيل حول جسمها ،المزركش الألوان، الذي يختزل ثقافة المكان والزمان عبر العصور..

رفقة الرجل الهندي الأسمر بجسمه النحيف وجلده الكثير التجاعيد الواقف في وجه الإعصار، المتمسك بلباسه التقليدي قميص و جبة مزهوا بحقله الأخضر.

دخلنا مدينة أغرا بعد أكثر من أربع ساعات سيرا ، وسرعة لا تتجاوز 80 كلم في الساعة، لأن السائق يتجنب غرامات السرعة الزائدة ، التي تُعرف بواسطة الرادار غير المرئي، الذي يسجل المخالفة تلقائيا من ترقيم السيارة ويدوّنها على حساب السائق، لذلك تختفي السرعة المفرطة في طرقات الهند ، و تكاد تنعدم الحوادث، حيث لم نر حادث سير بالهند طيلة إقامتنا بها.

تقع مدينة "أغرا" شمال ولاية "أترابراديش" وتبعد 200 كلم جنوب العاصمة نيودلهي، تأسست عام 1475م، وأصبحت عاصمة البلدة في عهد " سلطان إسكندر ودهي" سنة 1506م، عندما تدخلها تستقبلك روائع الحضارة الإسلامية، قلعة ضخمة مبانيها شاسعة شاهقة بلون

قرميدي، يحيط بها سور عظيم، لكن نحن سرعان مانسيناها لأن قلوبنا كانت معلّقة على مقصدنا، الذي كان المبتغى الأول في رحلتنا السياحية هذه.

بعد دقائق توقفت السيارة ، لقد وصلنا إلى إحدى عجائب الدنيا السبع ، يوم 27 فبراير2020 م محطّة تاريخية في ترحالي، ، منذ ثلاثة أيام كان هنا الرئيس الأمريكي الأرعن دونال ترامب، هل قدّر عليّ أن أمحو آثار القدم الهمجية من هذا المقام الزكي !

بعد شراء التذاكر من شباك الأجانب بثمن مضاعف عدّة مرات، مقارنة بتذاكر سكان الهند، توجّهنا نحن الثلاثة إلى بوابة المدخل الرئيسي لتاج محل وهي أيضا بناية ضخمة، وتحفة معمارية مميّزة، ولجناها فحظينا بأول نظرة للجهة المقابلة، حيث المعلم الأثري التاريخي و القطب السياحي الشهير" تاج محل " الذي يبدو من بعيد، كتاج أبيض لملك يجلس على كرسي العرش بين الحدائق.. و قد تطابق الاسم على المسمى، ويبدو أيضا على صورة طائر نورس ضخم، ملّون الجناحين و كأنه يتهيأ للطيران !! وتطير معه أفكارنا إلى زمن العزّ والوئام..

هذا "تاج محل" و على يمينه مسجد و على يساره بناية أخرى، عندما تقترب منه يزداد بهاء وعندما تبتعد كذلك،

رائع في القرب والبعد، وهذه حديقة "مهتاب باغ" بجواره ،أو حديقة القمر كما تسمى أيضا، وهي مزيّنة بالورد والزهر، محاطة بالأحواض المائية، تستقبل آلاف الزوار من كل الأجناس، فتسأل نفسك..أيّة مكانة حازتها هذه المرأة المدعوة (ممتازمحل) في قلب الملك (شاه جهان) حتى يقيم لها هذا الصرح العظيم من الرخام الأبيض، عام 1630م بأنامل 20 ألف عامل مدة 22 سنة ؟!

ماذا لو أن كلّ محبّ لزوجته بنى لها مثل هذا الصرح، هل تصبح الدنيا كلّها قصورا و حدائق؟! و هل يستطيع أزواج اليوم فعل ذلك، وفيهم من يبخل حتى عن إهداء وردة أو كلمة طيبة لزوجته ؟!

وماذا أهدت "ممتاز محل " في المقابل للملك غياث الدين خرم بن جهانكير، المعروف بشهاب الدين محمد شاه جهان، أي: ملك الدنيا ؟! ، الجواب سنتعرف عليه بعد قليل داخل " تاج محل" وأتوقّعه ، أنها جعلته ملك الحب أيضا.!

ما أروع المكان، الجمال و الجلال، يا بديع الكون.. هل أنا في حلم؟!

مشينا عبرمسار الحركة بين المساحات الوردية في ساحة القصر بخطوات متأنية، وفق الممر المخصّص للزوّار، لنجد أنفسنا خلف "تاج محل" بعد أن مررنا أمام بناية قربه،

فقابلتنا حدائق الأشجار والنهر المائي "يَمُنَا" أو"جَمُنَا" يلّفه من الخلف، وكأن الممّر قد صمّم خصيصا كي يتوضأ الزوّاربماء النهر قبل دخول المسجد على يمين التاج، هذا الجامع التراثي الذي مازال محتفظا بمحرابه وزخرفته،والخطوط العربية التي دوّنت بها الآيات القرآنية على الجدران، ومحتفظ أيضا بذكرياته و دموعه على رواده من المصلين الذين غادروه مع الزمن الجميل، وكأن النهر الجاري قربه يستمد ماءه من دموع هذا المسجد المتشوق لرواده في العهود السالفة.

تيمّمت برخام الجدران وصلّيت ركعتين "تحية للمسجد" وترحما على الأيدي الفنية والأنامل الذهبية التي بنت وزخرفت هذه التحفة، التي لا يذكرها التاريخ، رغم أن زوّارها من كل الأجناس، هذا المعلم المعماري من الفنون الإسلامية التي لا ينبغي طمسها، و هنا استحضرت الحالة الأندلسية التي تحاول تغييب كل ما يوحي إلى مرجعية الآثار العربية الإسلامية، لأن العمران مرآة الحضارة وهوالذاكرة الثقافية للشعوب لذلك يسعى البعض لطمس مرجعيتها قصدا...

كانت عائشة منشغلة بالتقاط الصور كعادتها، وكان ذلك لا يروقني أحيانا، لأن اختلاف سرعة المشي بيننا يجعلنا

نتباعد و قد نفقد بعضنا ونتيه وسط جموع الزوار، وقد لانلتقي إلى الأبد، وقد افتقدنا السائق المرافق لنا، لأنه اختفى بعدما تعب من تتبع مسارنا، وبعد انتظار رأيته قادما من خلف " تاج محل" و كأنه كان يصيد من بعيد النوارس البيضاء على ضفاف النهر...

واصلنا مسارنا بالمرور من مدخل صغير تحت مراقبة الحرّاس ، و بعد تفتيشهم للحقائب اليدوية،صعدنا مدرجا صغيرا إلى ساحة تاج محل ، المؤدية إلى مدخله....يا لها من لحظة تاريخية!!

في هذه الساحة الصغيرة ترى عيون العالم حولك معلّقة بنظرات الإعجاب والانبهار، مشدوهة إلى هذا الصرح الفاخر، ليتكم معي لتروا هذه التحفة في معمارها وزخرفتها بالآيات القرآنية على المرمر الأبيض الذي ينعكس عليه ضوء الشمس والقمر فيشع جمالا وبهاء....

وأخيرا دخلنا " تاج محل " من باب محروس، سبقنا نظراتنا المتفحّصة كلّ الأشياء في الداخل ..

عندما تقف متأملا ومتعجبا أمام قبرين متجاورين للملك " شاه جان" وزوجته " ممتازمحل " في القاعة الأرضية يتدفّق على مخيلتك ألف سؤال وآلاف الأجوبة، وتتهمر

الأفكار بعدد المعاني والمباني والدلالات التي لا تسعها العبارات أمام روعة المكان وسحر قصة الحب الجميلة هذه..

هذا المكان الأسطوري الذي حيكت حوله القصص والروايات، وصوّرت عديد الأفلام و قيل الكثير عنه، هنا بتاج محل يصنع الحب المعجزة، يجتمع العالم ليتفرج على أروع قصّة خلّدها التاريخ حتى صارت من عجائب الدنيا السبع...

وأنت تطوف في مسارك في دورة واحدة حول مرقديهما، تحت نظرات الحارس الملّحة عليك بالتحرك إلى الأمام تجنبا للازدحام، ترسل من فتحات الجدار المزخرف نظرات الإعجاب والتقدير لهذا الملك " شاه جهان " الذي كرّم حبيبته " ممتازمحل" بهذا الصرح التاريخي، فتعتريك رهبة ورعشة وأنت ترى أروع آيات الحب الإنساني مجسدة أمامك، ودفتر الحياة الخاصة مفتوح أمامك لأسعد زوجين حبيبين نائمين جنبا إلى جنب، في ضريحين قريبين، وكأنهما في غفوة قيلولة صيفية، وأمام هذا الجلال الرباني، والسمو الروحاني، والجمال الإنساني ما عليك إلاّ أن تقرأ الفاتحة، وتدعو لهما بدوام المحبة، ولو كنت على غير ديانتهم الإسلامية.. نعم إن أبناء الأرض مدينون لهذا الملك الرائع لما

تعلّموه منه من آيات الحب والهوى، وكذلك مدن الدنيا مدينة لتاج محل وجمال العمران به وما حوى.

والعجيب أنّ " شاه جهان " بنى"تاج محل" مقابلا للقلعة الحمراء حيث مقر الديوان الملكي، هذا الملك المجنون بحب " ممتازمحل " حتى بعد وفاتها جعلها أمام بصره ، وكأنه يخشى أن تستيقظ فتجد غيره أو يتحول نظره إلى غيرها، صدق المثل الهندي "في الحب يتساوى الشحّاذ والملك".

ومن الحكايا أنه مات جنونا في حبّ هذه المرأة الهندية صاحبة الجلالة، التي أسرت عقله حد الخبل والوفاة... ومن الحب ما قتل ؟! وأنّه في آخر أيامه كان يطلّ من نوافذ القلعة على قبرها بعد أن منعه ابنه العاق من زيارة " تاج محل"....

و تلتفت إلى زوجتك و في عينيك ألف سؤال ، فتردّ بنظراتها بأجوبة ليس لها نهاية، لكن الدورة حول الحب الأسطوري انتهت دون البوح بأسئلتي وأجوبتها.

خرجنا إلى الساحة العلوية من الباب الخلفي، حيث شرعت في تسجيل فيديو مباشر للأصدقاء الذين كانوا يتابعونني على المباشر بواسطة الفايسبوك، ونجوت بأعجوبة من موت محقّق لولا لطف الله، حيث كنت أمشي و بصري على شاشة الهاتف، لم انتبه إلى حافة الساحة، فكدت أهوى من هذا السطح العلوي، لأن السيّاج المحيط بالساحة قصير،

و كادت قدمي أن تعثر بمطبة في مجرى سيول المطروأسقط من علوّ، و لم أكن أعرف أن الهنود قالوا منذ القدم:

" قس مساحة المكان الذي تقف فيه، لكن لا تخطو أي خطوة إلاّ بحذر، لا تعثر رجلنا بالجبل بل بحجرة، ما أجمل الوقوع إذا صادفت يدك جوهرة."، فهل كانت في انتظاري جوهرة ؟!

في هذه الساحة التي تطل على النهر والجامع والحدائق المجاورة، تظل الأسئلة تجول بخاطرك : هل أراد الملك " شاه جهان " بهذا الصرح أن يخلّد اسم زوجته "ممتازمحل " لحسنها أم لنسبها أم لدينها، أم تكريما لها كزوجة و كملكة كانت ترافقه في مقدمة الجيش خلال حروبه ، أم شغفا بها لاغير ؟!

لم أشغل نفسي بالإجابة، فالوقت لا يكفي لذلك، والأصوات المنبعثة من أفواه السيّاح بمختلف اللغات، وكأنني وسط أقفاص عصافير مزقزقة، لم تترك لي مجالا للتفكير.

بعد التقاط صور لحديقة القصر وأحواضه، نزلنا الدرج لنعود إلى أرضية الحديقة، ومنها اتجهنا نحو البوابة حيث كان السائق في انتظارنا بسحنته الهندية السمراء وبذلته الصيفية الخضراء، كان الوقت يقترب من منتصف

النهاروالسيّاح يتدفقون على " تاج محل " ترافقهم شمس ساطعة، تلفح أجسامهم حرارة أتت قبل موعدها .

ودّعنا "تاج محل" وعيوننا مشدودة إليه كطفل يرى القمر أول مرّة، قلوبنا معلّقة على صومعة هذا الصرح الأبيض، الذي كان حجمه يتقلص شيئا فشيئا، ويبدو خلفنا كحمامة مهيضة الجناح تردّد في صوت مبحوح، قول الشاعر ابن زيدون لولادة بنت المستكفي:

" إنّ الزمان الذي ما زال يضحكنا

أنسا بقربهم قد عاد يبكينا "

تذكرت الآن أنّ هرما رابعا بناه ملك على ضريح زوجته تكريما لها قبل 15 قرنا من بناء "تاج محل"، ليس من أهرامات الجيزة في القاهرة، إنه غرب مدينة الجزائر، الملك اسمه " يوبا الثاني" وزوجته "سيليني كليوباترا" ابنة كليوباترا الفرعونية ، يقف الضريح على هضبة الساحل كالنسر، عين على البحر المتوسط وأخرى على جبل الأطلس البليدي، هل استمد "شاه جان" فكرته من يوبا الثاني ؟!

جولة في "قلعة آغرا الحمراء"

بعد خروجنا من تاج محل، اتّجهنا صوب السيارة راجلين.. طلبت من السائق التوجه بنا نحو القلعة.. المؤكد أنه لم يفهم سوى هذه الكلمة، لأنني نطقتها بصعوبة كما ينطقونها (كالاء).

ولهذه القلعة التي مررنا قربها هذا الصباح في مدخل مدينة "آغرا" حكاية أخرى، هي واحدة من أروع قلاع المغول المسلمين في الهند...وقد شهدت فصول وتفاصيل حكم هذا الملك الأسطوري "شاه جهان"... نعم كانت مقرّ إقامته حيث تدار شؤون الإمبراطورية، كانت القلعة تحتضن المدينة الملكية كموقع عسكري استراتيجي، كما كانت مقرا للحاكم المغولي جلال الدين أكبر.

تلبس القلعة لونا أحمر داكنا، و تسمى قلعة أغرا، بنيت بالحجر الأحمر على شكل هلال عام 1565م بعد ثماني سنوات من الإعمار، جدرانها طويلة مترامية الأطراف، متباعدة البنايات، تقع قرب حدائق تاج محل، ولغياب دليل

ينطق اللغة التي نفهمها، فقد تعرّفنا استنتاجا على مصلى الملك و مكان جلوسه على العرش أو الديوان الخاص فقط .

بعد جولة قصيرة في مرافق وأجنحة هذه القلعة العتيقة ذات القصوروالأبراج والقباب والساحات، خرجنا من حيث دخلنا... فكلّمت السائق هاتفيا بلغة الطير..!! وانتظرناه في مدخل القلعة، ورغم وهج أشعة الشمس انزوينا في مكان أكثر حماية من عيون بعض الشباب، التي كانت لا تبعث على الاطمئنان، ألم يقل المثل الهندي:" يصنع الفقر لصوصا كما يصنع الحب شعراء" ؟!

ها قد أقبلت السيارة، بعد ركوبنا تقدّم عون المرور بلباسه المدني وبدأ يسجل رقم السيارة لتغريم صاحبها على مخالفة التوقف الممنوع، انتفض السائق في وجه عون المرور، وتحوّل من حمل وديع كما عرفناه طوال الرحلة إلى نمر شرس، كانت الكلمات تخرج من فيه في سرعة مذهلة كشرارة الحديد، وفي مرافعة قوّية انتهت بتراجع عون المرور وانسحابه صامتا، لم استوعب ما قاله السائق، لكن حجته تبدو قوّية والشرطي كان حكيما أيضا..

وعدنا إلى نيودلهي لنصلها الساعة السابعة ليلا...طلب السائق أجرا إضافيا فكان له ما يرضيه، بعد أن طاوع طلباتي بما يرضيني خلال يوم كامل حتى و نحن عائدون،

حيث صادف الوقت موعد خروج العمال بخوذاتهم السود على درجاتهم النارية، وهم يملأون الشوارع و كأنهم أمم نمل خرجت من مساكنها!! و كم أبهرتنا وسيلة النقل هذه، الدراجة النارية و هي تحمل أسرة كاملة، الأب والأم و بينهما طفلان، و مرّة رأينا صبيا يرضع أمه على دراجة نارية يقودها والده تتوسطهما شقيقته ...

تسير الدارجات النارية وسط السيارات في طرقات متزاحمة ، هذه السيارات تسير في أمان دون أن تلامس بعضها ، كأنها تسير وفق نظام آلي دقيق دون صدام أو خصام، وكأنها مسرحية المركبات على ركح الحياة، عنوانها التسامح.

سوق الكتب .. المتنقل

وفي هذا الطوفان المروري يهزّك منظر آخر، عندما ترى شابا في زحمة الطرقات يتنقل بين السيارات حاملا باقة من الكتب، يعرضها للبيع بطريقته الخاصة، فتتساءل في نفسك: هل عرف العلم قيمة المال فذهب إليه أم عرف الشاب أن رزقه مقدّر في السعي بين طيات الكتب و عجلات السيارات فلاحقه ؟!.... حقا إنها عجائب الدنيا والحياة..!

رحلة إلى مدينة جايبور

الساعة الخامسة فجرا بنيودلهي، إنه الفاتح من شهر مارس 2020م، رنّ منبه الهاتف فاستيقظنا على عجل، ثم دقّ باب الغرفة من قبل عامل المطعم و هو يحمل كأسي حليب ساخن، صباح الخير والبركات أيتها الدنيا،اليوم نغوص في أعماق ذاكرة الهند.. مدينة جايبور..

في ضوء الصبح تنطلق السيارة، وفي مثل البوح تعترف المدينة نيودلهي بأسرارها،ليس على أفواه صغارها بل على لسان السائق الهندوسي الذي لم يكن متحفظا كثيرا، وحظّنا أنّ لسانه يحسن الحديث بالانجليزية.

في مخرج نيودلهي تراءت لنا عن بعد مدينة الإعلام والإنتاج السينمائي، تكاد تضاهي بوليود بومباي أو هوليوود لوس أنجلوس،وكأنها تستعد لتصوير فيلم جديد نحن أبطاله، مرّ شريط الذكريات مستحضرا الأفلام الهندية التي كانت تسكن الشعور واللاشعور، وتشبع فضولنا ونهمنا الرومانسي لفترة من سنين الفتوة والشباب.

الرحلة إلى جايبور تجربة جميلة، وكأنها حلم من أحلام الطفولة، تخرجك من الجب لتكتشف مدينة

الأساطير، و كان الرفاق أربعة:عائشة ،مديحة، كاظم والسائق ،كانت بداية السفر عبر الأمزجة، و كل مزاج قد يحتاج إلى علاج.. ومن حسن الحظ أن الرفقة كانت طيّبة ...

ما إن ابتعدنا عشرين كلم عن نيودلهي حتى بدأت مظاهر أخرى على حافة الطريق ... رأيناهم يتتابعون: الأول.. الثاني ..الثالث.. العاشر.. فرادى و جماعات يسيرون حاملين الرايات الصفراء و الحمراء ... امتدّ بنا المسير و لم ينقطعوا حوالى 100 كلم، وهم يسابقون الشمس والزمن... وكأن الرايات الصفراء لا تقتصر على الحراك الشعبي في الجزائر فقط..

سألنا السائق :

- إلى أين يتجهون ؟!

أجاب باسما:

- إلى العبادة...

نفد صبرنا وقد اجتاحنا الفضول، فقرّرنا المغامرة والنزول إليهم... توقفت السيارة، جمعت ما في ذخيرتي من شجاعة ونزلت متّجها صوبهم دون مقدمات أو خشية ردّة فعل، لأن الوقت لم يكن مناسبا للاختلاط بهم، نظرا لما تشهده الهند من اضطرابات بينهم و بين المسلمين ...

شجّعتني ابتساماتهم ، فاقتربت منهم وتوسطتهم، ثم طلبت من الأستاذ كاظم الذي التحق بي أن يلتقط لنا صورا ، تجرأت ثانية وسألتهم مباشرة بحركات الأيدي: ماذا تفعلون؟! ولماذا لا تعبدون الله (رفعت يدي مشيرا بتكبيرة الإحرام) ؟

فأجابوا بحركة رؤوسهم بالنفي و هم يبتسمون، وكأنهم يقولون لي:

- لكم دينكم و لنا دين...

ما يثير الانتباه أنهم رجالا و نساء كانوا مبتهجين، متشوّقين للقاء معبودهم غير آبهين بالإرهاق البدني، بينما يذهب البعض عندنا للصلاة بخطى متثاقلة وبوجوه مرهقة عليها لباس العبوس كأنه موعد حرب و ليس لقاء حب.

عدنا إلى السيارة وكأننا حقّقنا نصرا مبينا على حاجز الخوف من الآخر، انطلقت السيارة تطوي الأرض طيّا في سرعة معقولة، ثم انحازت بنا جانبا، حيث محطّة استراحة بها محلات و مطعم كبير ...الخ

تفقدنا واجهات المحلات بتمعّن، كمن يبحث عن إبرة في كومة تبن أو زمردة في أعماق اليّم ، وذهبت الستات - حسب التسمية المصرية الأنيقة للسيدات - كعادتهن لمحل الألبسة في لهفة العروس التي تقتني لباس عرسها، والحقيقة

أن الألبسة الهندية وحدها تمثّل ثقافة متفرّدة، خاصة اللباس "ساري" المعروف كلباس تقليدي في الهند، رفضت المرأة الهندية التخلي عنه رغم المحاولات العديدة لتحريرها منه منذ الاحتلال البريطاني للهند، من قبل التيارات ذات الأفكار التحررية الشرقية والغربية... لكن مع الأيام بدأ يقلّ ارتداء هذا اللباس " الساري " في المدن باستثناء المتزوجات اللائي يحافظن على هذا الموروث، حيث تلبسه النساء في مناسبات خاصة كالأعياد والزواج، غير أن نساء القرى والبلدات يتمسكن بهذا اللباس الجميل وكذلك الحال في شمال الهند..

و المرأة الهندية رمز الخصوبة و البهاء و الكفاح اليومي المستمر، تكدح طوال النهار كما رأيناها في الحقول، أو في شؤون البيت كطهي الخبز، لأن الهند تكاد تنعدم بها محلاّت لبيع الخبز إلاّ نادرا، والمرأة الهندية تشعر بالسعادة لأن قرابة المليار والنصف مليار يأكل من يدها المشققة، وينام الصبيان على صدرها، من عينيها ينبثق الفجر وعلى شفتيها يبرعم الرفض، وفي قسمات جبينها يسكن الزمن، وتنعكس أشعة الشمس على شعرها المزعفر فيزيدها وقارا وبهاء، هنّ السمراوات الجميلات في لون القمح والعسل يحملن مكانس طويلة، ويجمعن ما تناثر من أوراق الأشجار

العملاقة،أو يقضين أيامهن في حقول الذرة، في وقت تكون فيه أخريات من نساء العالم في منتجعات التزحلق على الثلج، هكذا تعشق المرأة الهندية وطنها،وهي متمسكة بتقاليدها ومنها هذا اللباس التقليدي "الساري"، الذي كانت صغيرتي (نور) توصيني بشرائه في كلّ اتصال هاتفي، حتى كادت أن تقول لنا: لا تعودوا بدونه ...

ولأجل ذلك ذهبت إلى أسواق نيودلهي، مثل سوق "تشاندي تشوك "وهو أقدم سوق في دلهي، وسوق الجامع الذي عدت إليه مرّة ثانية رغم بعده 26 كلم عن الفندق ...

ورغم الذي تمنحه المرأة الهندية من عطاء وثراء وبهاء، فإنها لم تسلم من النظرة الدونية أحيانا، وهذا المثل الهندي شاهد ودليل، إذ يقول "المرأة الباب الرئيس للجحيم"، قد يندرج هذا التوصيف في موضوع الغواية والفتنة، بمنظور ديني، لكن الذكورية متحاملة على المرأة من عهد الإغريق القائل "وراء كل جريمة امرأة".

ومع ذلك كانت السباقة عالميا في التاريخ المعاصر في تولي المناصب العليا سياسيا كرئاسة الوزراء آنديرا غاندي (الهند)، وبنظير بوتو (باكستان).

حقّا، في هذه المواقع السياحية عليك أن تتقي الله ما استطعت، وأن تستحضر الآيتين الأولى من سورة النساء

والثلاثين من سورة النور كي تغضّ البصر عن مفاتن بعض الهنديات، فلباس النساء هناك أقل حشمة، يبدي من الظهور والصدور والبطون ما يواجه نظرك حيث التفتّ، باستثناء المسلمات اللائي يتحلّين بلباس الحياء والستر.. وهناك عليك أن تستحضر رواية توفيق الحكيم لتصبح راهبا بين نساء، خاصة إذا كان بصحبتك رقيب، يتبع نظراتك و لا يسمح لك حتى بما يجيزه الشرع من أن النظرة الأولى لك...

دخلنا المطعم الواسع، كانت الوجبة الصباحية الدسمة تملأ الموائد وسط الأكلة المحيطين بها من العائلات صغارا وكبارا، يتناولون الأطباق الهندية بنهم كأنه موعد افطار بعد صيام، ولا عجب في ذلك إنها عادة أهل الشرق عبر العصور، كانت أبصارنا تلتهم هذه المناظر في شراهة، وذاكرتي تسجل هذه التفاصيل الصغيرة لأستحضرها من حين لآخر..

في هذه المحطة السريعة أكرمت الرفاق بعصير التفّاح، كأس كبيرة منه وزّعتها على أربع كؤوس صغيرة، لا أدرى هل هذا كرم أم بخل أم اقتصاد سائح؟! وأكرمنا كاظم بالحلوى، الطريق طويل و الزاد قليل..!!

و أخيرا وصلنا "جايبور" مدينة الأساطير التي حدثتنا عنها إحدى المشاركات في المؤتمر، الأستاذة أمامة من سلطنة

عمان، التي كانت خبيرة بالأقطاب السياحية الأثرية، وبارعة في التجوال العابر للقارات براعتها في نقد الأساتذة المتدخلين بالمؤتمر الدولي إلى درجة إرباكهم أحيانا...

تقع جايبور أو المدينة الوردية في شمال غرب الهند، على حدود باكستان، وهي عاصمة أكبر ولاية هندية تسمى "راجستان" ومعناها (أرض الملوك)، وتبعد جايبور 259 كلم جنوب غرب نيودلهي،أسّسها المهراجا ساواي جاي سينغ الثاني عام 1727م، مدينة سياحية تشتهر بالمجوهرات والرخام والمنسوجات والزجاج والسجاد والدواء... إلخ

جايبور بلدة هندية كبيرة، تنام بين الهضاب والمرتفعات، يحيلك منظرها إلى العصر الحجري، فتعتريك رهبة و إحساس قوي بأن هذه البلدة قاسية كأحجارها، لا تحنّ على الغرباء.

توجّهنا مباشرة إلى القصر أو الحصن المتربع على هضبة، وكأنّ المدينة تتوسده ليحكى لها كل مساء قصص وأساطير الزمن القديم ...

يبدو القصر الحصن كجوهرة معلّقة على جبل، ويمتد منه سور عظيم يحيط بالمدينة كلّها، كسوار حول معصم عروس، وهذه حالة المدن القديمة و بعض الدول التي بنت حولها أسوارا تحميها، كسور الصين العظيم، وحاكم هذه

المدينة اعتصم بالجبل كموقع استراتيجي يقيه من الغزاة، كما يبقي المدينة أمام ناظريه...

بعد نزولنا من السيّارة دخلنا القصر كالفاتحين من بوابته الكبرى في الناحية الخلفية كانت البداية ... تتوسط القصر ساحة يتفرع منها ممرّان ألأول يصعد نحو البلاط الملكي، والثاني يربطها بالمدينة من الجهة الأمامية، مخصّص للمشاة أو لتتقل الفيلة، إذ وجدنا مجموعة من الفيلة الضخمة في الساحة كالحفلات في المحطة، تنتظر الركاب لتتقلهم إلى المدينة في منخفض الواد، الذي يشكّل بحيرة تزّين المكان .

و توجد على قمم أعمدة القصر الرخامية تماثيل رؤوس أفيال، يحمل كل واحد منها زهرة اللوتس بخرطومه.

ملامح الجدّ والصرامة تبدو على محيّا الهنود، لكن ألق البهجة ينتشر في كل مكان عبر الفلكلور القديم، والنكتة المتوالية، ما يبعث في النفوس الغبطة التي قد تخفّف قليلا من شدّة الأسى الذي ينبت هنا وهناك، بفعل الفاقة وقهر الزمان، و لذلك يحاول الإنسان هناك إحداث التوازن النفسي، إنهم يحاربون الأسى بالفرح يستنطقون التراث الزاخر بالفنون الجميلة قصد الاستمتاع...،ربما كان الفقر هو الكفروالعبادات الأخرى لغير الله شرك فقط،حتى لو

كانت عبادة حيوان أو حشرة، وعموما فإن الهنود إنسانيون جدا حتى إن أحد زوار بلادهم قال : إن الهنود متسامحون جدا لدرجة أنهم لا يقتلون البق، وأقول: هم طيبون جدا، فإذا أحبوك يعاملونك كالبقرة، وإذا كرهوك يعاملونك كالبق.. ونحن نقف على السور المطلّ على أحياء المدينة، رأيت موكبا شعبيا كبيرا يجوب شوارعها، تتبعث منه الأنغام والأهازيج فتزيد الأجواء بهجة وجبورا.. لم أعرف، هل هو حفل زواج أم عبادة وثن؟!

توجّهت وعائشة نحو بوابة داخلية تؤدي إلى بهو وحوله غرف، تمارس فيها طقوس غريبة، هل أنسحب أم نواصل الاكتشاف؟!

يا للعجب الناس يعبدون التماثيل، هاهم أمامي يجلسون القرفصاء أمامها لمدة طويلة، ومنهم الواقفون الذين لم يسعهم المكان، و في غرفة أخرى كومة من رماد حولها يتحلقّون، ويأخذون منه قليلا ثم يخرجون من باب عليها صور حيوانات مختلفة الأشكال، يتمسّحون بها ويردّدون كلاما غير مفهوم، وكأننا في العصر الجاهلي، زمن اللات و العزى وهبل... مرّ شريط بمخيلتي في لمح البرق امتدّ منذ بدء الخليقة إلى اليوم .. هكذا ذاكرتي أصبحت متخمة بصور الإنسانية البائسة.

خرجنا من المكان مشدوهين بل خشينا من غضب الهندوس لأننا لم نحترم عقيدتهم عندما لم نتشبه بهم في ممارسة طقوسهم، جلست غير بعيد على سور صغير، أتأمل المشهد بين مصدق ومكذّب ممّا رأيت، وإذا بشخصين يخرجان من ذلك (المعبد)، أحدهما يلبس جبّة بنّية تميل إلى اللون الأصفر، والثاني نصفه عار،وجسمه مطلي بدهن رمادي قريب من البياض، كشبح أبيض في ليل أسود،لو رآهما الشيطان لفرّ هاربا.!! لا شك أنهم من كبار عبدة النار أو من البوذيين ...!!

التفت الرجلان نحوي و هما يسيران، فجمعت ما تبقى في عقلي من ثبات نفس و من شجاعة وأشرت عليهما بالاقتراب، جلس بجانبي الرجل العاري الملون بالرماد ثم رفيقه، مدّ الأول يده نحو مؤخرة رأسي وبدأ يتمتم، يقول شيئا لم أفهمه، ، لكنّني أشرت لهما بالنظر نحو آلة التصوير التي كانت تصّوبها نحونا عائشة.

وعندما استمر الرجل في طقوسه و يده على عاتقي، وقفت منصرفا غير ملتفت ورائي، زوجتي التي كانت تراقب المشهد قالت:

- طلب منك نقودا..

رفضت طلبهم وكأنني استحضرت المثل الهندي القائل:" الرجل الحكيم يعطي فورا،الرجل الأكثر حكمة يرفض فورا".

قلت لها و أنا ابتعد عن المكان:

ـ رجال الدين الحقيقيون لا يقبضون المقابل، هذه تجارة وعندنا أمثالهم كثر...

ذهبت هيبة الرجلين مع الريح، فالطمع يفسد الطبع كما يقال، وحسب مظهرهما، قد يكونان من الطائفة الأغورية (و معناه الذين لا يخافون) وهي طائفة هندية ظهرت في القرن الثامن عشر، استمدّت طقوسها من طائفة حملة الجماجم (الكابليكا)، وحسب ما يقال من أساطير ـ والأسطورة تحتمل الصدق والكذب، بل هي كذبة في الغالب صدقها الناس لتكرارها وتداولها عبر الأجيال ـ، فإنهم قوم عراة إلاّ ما يغطي عورتهم، يغطّون أجسادهم برماد الموتى ويتزّينون بعظام الموتى أيضا، يأكلون الكلاب والجثث الأدمية وهي نيئة ويحرقون موتاهم ويمارسون الجنس مع الجثّث، و يحرّمون ممارسته مع المثليين، ويدخنون القنب الهندي، وهم يظنون أنهم بأفعالهم هذه يرتقون روحيا ويلتحمون بالإله الأعظم، كذلك يأكلون فضلات البشر، ويشربون بولهم و بول غيرهم بأيديهم و بالجماجم البشرية،

يعيشون في عزلة حتى عن أقاربهم، لا يخرجون إلاّ لضفاف نهر (الغانج) في مهرجان كمبه ميلا، لتوزيع البركات على الحجاج ،وهوالحج الهندوسي الذى تجري فعالياته بالهند كل أربع سنوات في مدينة فارانسي، وهي عند الهندوس بمثابة مكة للمسلمين.

هذا المعتقد ورثه الهندوس القدامى عن أسطورة قديمة في الديانة الفيدية أو الهندوسية القديمة، تتحدّث عن ما معناه بأن ملحمة وقعت بين الآلهة والشياطين، توصلا في النهاية إلى اتفاق بتقسيم رحيق الخلود بين الاثنين، لكن الشياطين فرّت بقارورة الرحيق و لحقت بها الآلهة لتقع معركة دامت اثني عشر يوما و ليلة، وفي هذه الاثناء سقطت قطرات من الرحيق على أربعة أماكن، والتي أصبحت تعدّ مدنا مقدّسة، منها مدينة (فاراناسي) حيث يقع فيها مهرجان الإبريق المقدس، وهو من أكثر التجمعات في الهند يحضره ملايين الزوار للتبرّك و للتحرّر من دورة الحياة والموت، و تسمى فاراناسي أيضا (مدينة الموت) لأن الهندوس يحرقون فيها موتاهم ، بل يفضلون الموت فيها لتحرق جثثهم وترمى في نهر "الغانج" المقدس. ويشترط في الانتماء إلى الطائفة الأغورية أن يجد المرّشح لذلك معلّما أغوريا، ويفعل بما يطلبه منه هذا المّعلم دون تردد، وأن يجد جمجمة بشرية يستعملها كإناء، وأن

يمسح جسده برماد جثّة ميتة، ويأكل لحما بشريا نيئا،ويجلس على جثّة بشرية هامدة، وكِتَاب الهندوسية، فرقها وحركاتها ومراكزها لمؤلفه محمد سرور الفاروقي الندوي، المنشور بلكناؤ الهند عام 2014م يحتوي على الكثير من المعلومات والحقائق حول الهندوس..

تقدّمت نحو شباك التذاكر واقتطعت تذكرتين لدخول البلاط الملكي في القصر،لم يكن الطابور طويلا، وجدت أكثر من دليل سياحي يعرض بضاعته اللغوية الوصفية والمعلوماتية، اخترت أحدهم يحسن الفرنسية، وتفاوضت معه على السعر بتخفيض 50 % من المبلغ المطلوب الذي كان يساوي 100 دولار أي ما يعادل 17000 دينار جزائري...

بدت من الدليل السياحي خبرة طويلة ،ودراية كبيرة بأسرارالقلعة،فكانت لي فرصة طرح الأسئلة المثيرة المتنوعة، لأتعرّف على حياته ومن خلالها عادات وتقاليد بلدته.. حيث ذكر لي أنهم يتزوجون مرّة واحدة في العمر، ويحرقون موتاهم و لهم معبودهم الخاص....

بعد زيارة خارجية خاطفة لمعلم أثري يتوسط المدينة وقد قارب الزمن وقت العصر،عدنا متجهين صوب نيودلهي في صمت ملحوظ !!

كان كل واحد منّا يعيد شريط الذكريات اليومية، كما عادت مظاهر الطقوس الدينية لترافقنا على جانب الطريق مثلما رأيناها في الصباح، وكأنها تقاليد يومية .. مشاة وعربات مزركشة على جانبي الطريق تسير خلف هودج كأنه محفل عرس راقص على وقع أنغام موسيقى هندية قديمة وأهازيج منوعة...

هكذا يذهبون إلى قدّاسهم، كما نذهب نحن إلى الملتقيات الأدبية و المناسبات المختلفة خاصة الوعدات خلال زيارات أضرحة الأولياء الصالحين، ترى الناس صغارا وكبارا في ابتهاج ... وكما فعلنا في الصباح،أوقفنا السيارة لالتقاط صور وتسجيل فيديوهات لهذا الكرنفال المثير، ثم واصلنا سيرنا في صمت ... ولا ندري لأية طبقة ينتمي هؤلاء في تقسيم الديانة الهندوسية، هل هم من الطبقة الأولى الكهنة ورجال الدين أم الطبقة الثانية (شترى) أي العسكريين أم طبقة الويش وهم رجال التجارة والزراعة، أم من الطبقة الرابعة وهي الفئة الدّنيا المكوّنة من المنبوذين والخدم وتسمى (الشودر)؟..لم أنتظرجوابا وعدت إلى حالي مطمئنا لأني لاأنتمي إلى أية طبقة منهم..

صدّق أو لا تصـــدّق ..!!

خلال عبورنا هذا الطريق الرابط بين مدينتي جاييور ونيودلهي، شدّ انتباهنا و جود أقراص دائرية سمراء تشبه الخبز اليدوي مكدسّة ومعروضة للبيع على حافة الطريق، كانت ملفتة للانتباه لكثرتها، حرصنا على كتم فضولنا مدّة لكنّه هزمنا، فشرعنا في استنطاق السائق.

عائشة تسأل:

- ما هذا ؟!

ردّد الأستاذ كاظم السؤال نفسه على السائق الذي أجاب ببرودة :

- إنه روث البقر المجفف.

(لقد عرفته، إنه الوقيد، جمع وقيدة، توقد به النار ثم يشتعل في هدوء حول الأواني الطينية حتى تصفّد وتصير صلبة).

سأله ثانية:

ـ لماذا يعرضونه هكذا؟!

أجاب الهندي:

ـ للبيع.

- ماذا يفعلون به؟

أجاب السائق مبتسما في برودة :

ـ يأكلونه.

ردّد الأستاذ كاظم في دهشة وتعجب:

ـ يأكلونه؟!... يأكلونه؟! أنت جاد في قولك؟!

أجاب السائق مبتسما:

ـ نعم ... نعم..

خيّم الوجوم علينا من فرط الدهشة،ومرّت لحظات كأنها دهر، تأرجح فيها العقل بين المعقول واللامعقول، وبعد صمت قصير بدأ الضحك و الكلام.

ليضيف سائق السيارة الهندوسي قائلا :

- نعم نأكله في الصباح و المساء .. ثم أضاف:

ـ أنا تناولته اليوم مع قهوة الصباح...

زادت دهشتنا، بدا لي السائق وكأنه ليس بشرا، قد يكون مخلوقا من كوكب آخر،ورحت أتأمل ملامح وجهه للاطمئنان على أنه يشبهنا..

جال تفكيرنا خارج الزمان والمكان،وتدفقت الأفكار والأسئلة حول الحياة والدين والفلسفة والكون، و سألت نفسي: فهل دافعهم إلى أكل هذا النوع غذائي أم تعبّدي؟!

ولم أتلق ردا مقنعا، لكنني وجدت الإجابة في المثل الهندي القائل: يبحث الفقير عن الغذاء و يبحث الغني عن الشهية...

ولم أشعر ببقية الطريق حتى توقّفت السيارة أمام مطعم أفغاني في الحي المجاور للفندق الذي نقيم فيه بنيودلهي، ونزلنا لتناول العشاء وأعيننا تدقّق في الخبز على المائدة، وكأنها تسأل:

هل هو مصنوع من القمح أم من شيء آخر؟!

وللحقيقة والتاريخ أسجّل هنا ماأخبرني به أساتذة جامعيون هنود ردّا عن استفساري في الموضوع :

أجاب الأول:

- "ما علمنا بأكل روث البقر من قبل الهندوس غير أن بعضهم يشربون بوله، وشرب بول البقر أمرمحبّذ لديهم، وإن كان البعض منهم يأكلون روث البقر، هذا غير مستبعد، ولكن ذلك لا يعدو كونه حالات استثنائية

وقال آخر:

- "هذه القصة ممكن أن تذكرها على سبيل التنكيت، لا أعتقد ولم أسمع قط أن الهندوس يأكلون روث البقر المجفّف، بل يجعلون منه في القرى والأرياف أشكالا مختلفة، بعد تجفيفه ثمّ يستخدمونه كوقود لطبخ الطعام وغيره، وأما

ما قال السائق فأظن أنه كان يسخر منكم، ويريد أن يجعلكم أضحوكة بما أنكم لا تعرفون اللغة المحلية، وهكذا يمزحون مع الأجانب أحيانا، أمّا شرب بول البقر فهذا صحيح، لكن لا يجوز أن نفهم أنّ كل هندوسي يشرب أو معظمهم يشربون، لا تشربه إلاّ فئة قليلة منهم، وبعض منهم يعتقدون بأن فيه شفاء من بعض الأمراض".

وأخبرني ثالث قائلا:

- " إن هذه المعلومات عن أكل الروث إنما هو بين الهندوس تبرّكا، ليس في عامّة الأحوال،كما هو متعارف فيما بيننا في الهند،أما شرب بول البقر فالهندوس المتطرفون المتعبدون المتظاهرون بعبادة النفس والهواء واللات والعزى فيشربون تعبّدا وشفاء أو إظهارا للعبودية العمياء، أما عامّة الشعب الهندوسي فلا يشربونه ولا يأكلون ذلك ".

عبادة الأبقار ... بين الحقيقة و الخيال

طيلة رحلتي إلى الهند، ظل الأصدقاء يحاصرونني بسؤال واحد كلّ مرّة عبر وسائل التواصل الاجتماعي هو: هل رأيتهم في الهند يعبدون البقرة ؟

كنت متردّدا في الإجابة، لأنني أعرف أن هذه الوسائل مكشوفة، ويمكن أن تجني من جوابك الشوك في بلد أنت ضيف فيه.. الزائر يدفعه فضوله لمعرفة كل شيء، كطفل صبي يكتشف العالم حوله باللمس والذوق، لا يهمّه إن مسك تمرا أو جمرا، لكن من الحكمة أن يراعي الضيف قيم وضوابط وأخلاقيات الحياة في المجتمع الذي يزوره، زلّة لسان أو قدم تلقي بصاحبها في غياهب الندم ...خاصة في بلد مثل الهند متعدّد الديانات والطقوس و التقاليد، لا تعرف لغته وقوانينه وقيّمه، لذلك فإن كلماتك و أفعالك ينبغي أن تكون محسوبة، وإذا رافقتك البهجة على يمينك فإن هاجس الخوف يسبقك على يسارك، وهذا شعور أحسست به أيضا في سنغافورة و إسبانيا، لكن بنسبة أقل...

ومن الصراحة القول، إنني لم أذهب إلى الأماكن والمدن التي توجد بها ظاهرة عبادة الأبقار لضيق الوقت وحساسية الموضوع، وكذلك الظرف الذي كانت تمرّ بها الهند من فتنة بين المسلمين والهندوس و هم عبدة البقر والأوثان.... فالتجوال نوع من المغامرة، خلال تلك الأيام في مدن الهند، رغم الهدوء الذي لمسناه في المناطق التي زرناها.

وما لاحظته و ما شاهدته من مكانة للبقر في الهند كحرية التجوال، وما سمعته من إجابة الهنود الذين سألتهم عن الموضوع بدقة، و تصريحات سائق السيارة الهندوسي، ودليلنا في قصر "جايبور" والكتاب الذي يباع في مكتبة القصر الخاص بعبادة الأبقار، وما ذكر لي أحد الهنود وهو من الثقات والعلم قائلا: " نعم يعبدون الأبقار، في شمال الهند يعبدون الأنثى من البقر، وفي جنوبه يعبدون الذكرمن البقر" وما أخبرني به آخر بوجود مناسبات لعبادة الابقار،تختلف مواعيدها و نوعياتها من منطقة إلى منطقة أخرى، كلّها أدلة على هذه العبادة العجيبة !!

فالبقرة في الهند رمز الوفرة و الخصوبة بسبب إنتاجها الحليب ، يحرّم أكل لحمها و لا يسمح بذبحها إلاّ في ولايتي غرب البنغال وكيرلا ، وبعض الولايات الشرقية من البلاد ، وهو من أسباب النزاع بين الهندوس و المسلمين.

يكفي أن يقول عنها غاندي: "هي أم ملايين من الهنود وحمايتها تعنى كلّ المخلوقات..."

لكن السؤال الذي لم أعثر على إجابته: كيف طاوعت عقول عباقرة الرياضيات والفيزياء وتكنولوجيات الحاسوب أصحابها على عبادة حيوان و هم يرون أن البقرة لا تستطيع حتى إنقاذ نفسها من الموت ؟! فكيف لها أن تستجيب لدعائهم ؟! و بأية فلسفة ومنطق يتحوّل فكر رجل عقلاني علمي إلى فكر رجل يؤمن بالخرافة ؟! وبالتالي لا فائدة من تأليفك ألف كتاب عن الحرية.. وأنت سجين أفكارك وقناعاتك !!

صحيح الهندي غيبي الاعتقاد كغيره من كثير من الشعوب في العالم، متعلّق بالقوة الغيبية التي يرى أنها تمنحه القوّة لمواجهة الحياة القاسية، لذلك فإن فلسفة الحياة عنده أنه يكدح ليعيش، ويعيش ليعبد ما وجد أجداده يعبدونه ولو كانت حجرة أو بقرة، فالشخصية عنده مجموعة سلوكيات التي اكتسبها من الآخرين أي أسلافه، كما هو شائع في علم النفس، لكن السياق التاريخي الذي مرّت به الهند عرف تطورات عديدة في المنظومة الفكرية للمجتمع الهندي، إنّما الاعتقاد الغيبي التراثي مدعوما بالعنصر العرقي جعل أغلب الهنود يتمسكون بموروثهم واعتقاداتهم القديمة الورادة في

كتاب (فيدا)، ولا ينفتحون على الديانات السماوية كالإسلام مثلا، ولم يتغيروا رغم مقولة المهاتما غاندي "كن التغيير الذي يغيّر الآخرين" ...

في ضيافة "الجامعة الملية الإسلامية "

عندما يدعوك أستاذ في مقام حبيب الله خان لحضور ملتقى في القسم الذي يرأسه بجامعة الملية الإسلامية بنيودلهي، لايمكنك أن ترفض له طلبا أو تخلف معه موعدا، فالرّجل الأنيق فكرا ومظهرا، لغته العربية سيل من عسل وابتسامته اللطيفة مفتاح لكلّ قفل، وشعره الملوّن سبيكة من ذهب، أما مقدار علمه فسبحان من وهب، و هذا حال كثير من الأساتذة الذين تعرّفنا عليهم في جامعة "جواهرلال نهرو" و"الجامعة الملية الإسلامية" بنيودلهي.

في طريقنا إلى "الجامعة الملية الإسلامية "حيث كانت الاستضافة لحضور افتتاح ملتقى موضوعه الترجمة بين الهند والعرب، والملية كلمة مشتقّة من الملّة، كنّا رفقة الدكتور مجيب الرحمن في سيارته الحمراء، الرجل الباسم الناشط الثقافي والمداوم على المنابرالعلمية، المثابرعلى كتابة مقالاته في الصحف العربية، الذي لا يكاد ينهي موضوعا حتى يفتح آخر...

و نحن نقترب من الوصول شاهدنا خياما منصوبة للطلبة الهنود المسلمين، المتظاهرين ضد قانون الجنسية، على طول حائط الجامعة المكسو برسومات ملوّنة تعبيرية، تبدي مواقفهم الرافضة ومطالبهم العادلة.

في رحاب الجامعة ترى الجمال والجلال يسموان في حضرة الاخضـرار، الـذي يرحّب بك حيثمـا وليت وجهك، لاسيّما في حديقتها المزهرة ذات الكراسي الخشبية، وقد كتب على كلّ واحد منها اسم عالم أو أستاذ يكون قد درّس في هذه الجامعة، أعجبتني الفكرة و التقطت صورا لها، قد أنشرها كي يستيقظ النوام في بلادي ويقدّرون الأستاذ حقّ قدره...

تأسست هذه الجامعة عام 1920م قبل استقلال الهند على أيدي الزعماء المسلمين وأبطال الاستقلال ضد الإحتلال البريطاني منهم أبو الكلام آزاد، الزعيم القومي لحزب المؤتمر الهندي، ومحمد علي الجوهر، والدكتور ذاكر حسين، ومحمود الحسن، وشوكت علي الجوهر، وتضمّ تسع كليات: الحقوق، الهندسة والتقنية، العمارة والتخطيط، اللغات والعلوم الإنسانية، الفنون التشكيلية، العلوم الاجتماعية، العلوم الطبيعية، التربية والتعليم، وطب الأسنان، وتعدّ هذه الجامعة من أهم الجامعات التربوية

والثقافية في الهند، وهي تقدّم مزيجا من الثقافتين الهندية والإسلامية، وتهدف في أبعادها إلى الجمع بين الفكرة الإسلامية، والروح العلمانية في بيئة هندية ذات تعدّدية.

استقبلنا الأساتذة الذين قدموا لحضور المؤتمر من مختلف الجامعات الهندية والطلبة مرحبين بنا بمودة عميقة واحترام كبير، وفتحوا قلوبهم لنا حتى شعرنا بأننا بين أهلنا... وكان لسان حالهم يردّد قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا .... نحن الضيوف وأنت ربّ المنزل.

أطلعتني طالبة على آخر الأخبار، وكأنها تعرفني منذ الميلاد، ولا عجب في ذلك، إنّها علاقة الأخوة الروحية، قالت:

- البارحة بتنا في رعب بعد انتشار إشاعة أن الهندوس سيهجمون على حيّنا، أمي باتت في هلع "، بينما اكتفى الرجال الحاضرون معنا بالنظرات.

هذا الرجل الأبيض قلبا و شعرا و لباسا، أستاذ من مدينة "حيدر أباد" اسمه إقبال، ذكّرني بالشاعر الكبير محمد إقبال ورائعته:

" حديث الروح للأرواح يسري

وتدركه الروح بلا عناء"

والتي ترجمت إلى العربية وأدّتها صوتيا كوكب الشرق المصرية أم كلثوم..

حدّثني الأستاذ إقبال بصوت هادئ عذب وسألني عن الشاعر عبد الله حمادي من الجزائر الذي حضر ملتقى بحيدر أباد منذ سنين... هكذا إنهم لا ينسون معارفهم، وكأنهم يستأنسون بهم في الحضور والغياب، إذ يرون فيهم رافدا روحيا وسندا معنويا ..

وكانت فرحة الأستاذات بعائشة كبيرة أذكر منهن: ارم زهراء رضوي، د. هيفاء شاكري، د.نسوبر جيلاني... ما أروع أن يحتضنك غريب ويصبح في لحظات شقيقا لم تلده أمك.

افتتح الملتقى بآيات قرآنية حرصت على بثّها مباشرة عبر النت حتى يطمئن بعض الأصدقاء في الجزائر الذين كانوا يظنّون أننا في ملتقى الهندوس، إذ كنت أتلقى منهم عتابا من خلال تعليقاتهم على صفحتي الفايسبوكية.

و في صدارة الملتقى تمّ الاحتفاء بالكتب الجديدة بحضور مؤلفيها، يقف في الواجهة الواحد تلو الآخر، وكتابه يوّزع على مجموعة من أعيان الجلسة، ليقفوا احتفاء بالكتاب و صاحبه..

و بعد مداخلات رئيس القسم السابق والحالي وممثل سفارات العراق ومصر والمغرب، حاضرالدكتورمجيب الرحمان حول الترجمة في العالم العربي واقعها وآفاقها، ثم اختتمت الجلسة الصباحية لتبدأ جلسة أخرى على مائدة الغذاء الشرفية المزينة بالأطباق الهندية، وكان إلى يميني رئيس الجامعة السابق وعلى يساري الملحق الثقافي بالمغرب، بينما اعتذر الدبلوماسي العراقي وزوجته عن مشاركتنا لأنهما صائمان، و ظل المضيف د. حبيب الله خان واقفا في خدمة الضيوف،وهذه من العادات الأصيلة في المجتمعات الشرقية، إذ يخدم صاحب البيت ضيفه ولا يشاطره الأكل ...

في المساء أكرمنا الدكتور محمد شكري ندى المستشار الثقافي بالسفارة المصرية بالهند برحلة إلى أحد أحياء المدينة، واستضافنا نحن الأربعة على مائدة مشروبات وفطائر ودعانا للعشاء فاعتذرنا، وهذا ليس غريبا على أبناء أم الدنيا الذين يكنون للجزائر حبا عميقا..

في ضيــافة "البيـــت الهنــدي"

و هل تتردّد إذا دعاك إلى بيته رجل هندي في منزلة الأستاذ رضوان الرحمن علما وأخلاقا وتصوفا ؟! وهو رئيس المؤتمر الدولي ورئيس قسم الدراسات العربية والإفريقية بجامعة لال نهرو، ثم يحضر إلى الفندق الذي تقيم به، و من بابه تبدأ الاستضافة، يجول بك جامعة جواهر لال نهرو، ويطلعك على مكتبتها وقت الغروب والطلبة يتردّدون عليها، ثم ترى الغزال الوحشي يتنقل بين الأشجار في حرية واطمئنان، فيخالجك شعور جميل بأن هذه مقّبلات لفتح الشهية لوجبة دسمة من أطباق الطبخ الهندي، بعد أن أكرمنا وجبات فكرية من المحاضرات في المؤتمر، فتعتريك الغبطة والسرور...

و عندما تجد عائلتين في استقبالك أسرة البيت: الزوجة والأولاد وأسرة الجامعة الأساتذة: أختر عالم ومحبوب ومسعود عالم،طالب الدكتوراه،مقدّم الأخبار في القسم العربي بالإذاعة، تحسّ بالإطمئنان والابتهاج، وكأنهم

أقاربك يحتفلون بعيد ميلادك في مسقط رأسك، هكذا المسلمون في الهند عائلة واحدة من مائة مليون، يتحدّ الجميع كالجسد الواحد في تضامن قوّي كي يشعروا ضيوفهم بأنهم في القلب ..

بينما كانت مشاعر رفاقي الثلاثة تستمتع بدفء المكان وفيوضات الروح، كادت العبرات أن تتناثر على وجنتي، فرفعت عيني أتأمل الجدران فإذا هي مزينة بآي القرآن، وسألت المضيف: هل زرت مكة ؟ أجابني: ثلاث عمرات .

كانت ربّة البيت مبتهجة وهي تضع الأطباق على المائدة، وكان زوجها الدكتور رضوان يقابلني متصدّرا الجلسة، وقد أمضى كثيرا من الوقت في الإجابة عن أسئلة مديحة وعائشة حول مصنّفات الطعام في الطبخ الهندي المعروف بتنوع المقبلات التي ترافق الأطباق الرئيسية ومنها الفطائر والجبن و في مقدمتها الشربة وحتى الكباب، وكثيرا ما كان يستنجد بسيدة البيت لشرح كيفية تحضير هذا النوع أو ذاك، لا عجب فضول النسوان في كلّ مكان وزمان!! بينما انهمكت والأستاذان كاظم وعالم في تذوّق ما لذّ وطاب، وسماع طيب الكلام وطرائف تحلّى بهاالمقام، وفي جلسة السهرة تبادلنا الأفكار وغرقنا في مواضيع شتى،

الإنسان المعاصر أمام الرهانات والتحديات بين الواقع والمأمول...

الأخ رضوان الرحمن صورة ناصعة لكلّ الهنود المسلمين، غمرنا بكرمه إذ فتح لنا بيته العامر وعرّفنا بأسرته الطيبة التي أكرمتنا من الأطباق الهندية اللذيذة، ثم أتحفنا بمجلة (الجيل الجديد) التي يشرف عليها، وزاد من كرم المضيف بعد أن ودّعنا أسرته شاكرين حسن الضيافة، أنه أعادنا إلى الفندق في أمان... فهل تكفي الكلمات لشكره ؟!

وهذاماكتبته يومئذ في منشور بصفحتي على الفايسبوك:

" هل تعرفونهم...؟! إخواننا في الهند رغم الظروف والمحن القاسية التي تشهدها بعض المدن هناك هذه الأيام... فتحوا لنا قلوبهم وبيوتهم، ووضعوننا في أعينهم ...يتمسكون بإسلامهم كمن يقبض على الجمر في ليلة باردة، ويتقنون العربية أكثر من الكثير من أبنائها، حتى إن أحد الهنود قال للعرب :

" اكسروا عظامي و لا تكسروا قواعد اللغة العربية، واشتموني بالفصحى ولا تمدحوني بالدّارجة ".

الجمعة في الهنـد... أندلس الشرق

في يوم مبارك معتّق بالود والصفاء، سألت الدكتور رضوان الرحمن وقد حضر مشرقا مظهره بلباس هندي تقليدي بديع يظاهي جمال مخبره الرفيع، الصدارية الصفراء المطرّزة بخيوط مختلفة الألوان، وتحتها السروال الدائري المتناسق الحياكة، ولمّا سألته : ما هذا اللباس ؟!

أجاب باعتزاز: إنه يوم الجمعة.

عند الزوال توجهت مع الأستاذين كاظم حمد محراث من العراق والبراء صفوان عبد الغني من جامعة الأزهرعلى متن السيّارة المخصّصة لنا، إلى أحد المساجد الصغيرة في قلب نيودلهي لأداء صلاة الجمعة، كان دليلنا الطالب الهندي جنيد الشاب الطيب الذي رافقنا سابقا في بعض الجولات السابقة..

اعترت جسمي قشعريرة، وخفقت خلجات نفسي لرؤية جموع الوافدين من الهنود الساعين إلى ذكر الله، البهاء الروحي متجلّ على وجوههم النيّرة، وهم يدخلون المسجد تباعا، متمسكين بدينهم رغم كل شيء...

كان الإمام في جلسة الدرس يتحدث بالهندية، وفي خطبة الجمعة أخذ بيده كتيبا قديما و بدأ يقرأ بالعربية كلاما لم نتعود سماعه في زماننا هذا، وكأنه كتب في القرن العاشر هجري ...

كنت أتأمل الوجوه وأحاول الولوج إلى أعماق الوجدان، لأتنفس الدفء الروحي الذي يسري في نفوسهم وقلوبهم، وكي أملأ فؤادي بطاقة جديدة من الحب والإيمان....لم تكن أبصارهم تلتفت نحونا،وكأن أرواحهم معلّقة بالسماء لا غير ... وهذا سرّ قوّتهم التي شيّدوا بفضلها حضارة استمرت ثمانية قرون ونصف في الهند يشع منها الجمال والجلال في العلاقات الانسانية وروائع العمران .

في الهند شعب مسالم وطيب وصبور رغم ما قاسه من احتلال الانجليز، وكأن الذي حدث في الأندلس من محاكم التفتيش تكرّر في الهند على يد الانجليز الذين فتكوا بالمسلمين، ولم يسلم" أبو الظفر سراج الدين محمد" المعروف بـ : ببهاء شاه ظفر آخر ملك مسلم في الهند، فقد قتل مع أولاده ومُحيَ قبره بعد أن نُفي إلى يانغون في بورما لتنتهي الدولة المُغولية (بضم حرف الميم وليس المَغولية) بعد عصر الازدهار (1002 م - 1858 م).

الليلـة الأخيـرة

بدأت نهاية الحكاية في الليلة الأخيرة من الرحلة التي كانت مزاجية كأجواء المحيط الهندي...الحقائب مفتوحة والأشياء منثورة في الغرفة، كأنها لا تريد المغادرة، أعدت قراءة تذكرة الطائرة عدّة مرّات، لأتأكد من تاريخ العودة حتى لا يتكرر ما وقع لي في مصر قبل شهر، حيث كان في ظني أن تاريخ العودة يصادف الخميس 05 فبراير،لكن صديقي الدكتور محمود حمزة المصري صحّح الظن باليقين، وأعلمني بأن يوم 5 فبراير يوافق الأربعاء،ولولاه لتأخرت عن موعد العودة بيوم، وصار كلّ مرّة يقول لي: عليك دين تذكرة من القاهرة إلى الجزائر..

كان الشوق إلى الجزائر ممتدّا من قلوبنا إلى مدرج الطائرة بالمطار، لكن فراق الأشقاء الهنود لم يكن سهلا لإدراكنا أننا قد لانلتقي بهم مرّة ثانية....

وكان أنيسي في فراقهم الغنائم التي عدّت بها من فيض المحبة، وذكريات الاحتفاء بي، مثل درع التكريم والشهادة الشرفية و شهادة المشاركة من جامعة جواهرلال نهرو، والهدايا الثمينة: كتاب د. محمد إدريس حول مساهمة العالم البروفيسور السيد محمد اجتباء ناب الندوي في الأدب

العربي، ومجلّة (الجيل الجديد) لقسم اللغة العربية، ربطة عنق و حزام جلدي من الدكتور عبيد الرحمن وعلب الحلوى والشكولاطة الهندية من الدكتور مجيب الرحمن ، وابتسامات الأساتذة جميعهم ...

وكان مشهد الطائرات المترادفة الواحدة تلو الأخرى على الرصيف، في انتظار الإقلاع، أو نزول الطائرات القادمة قد حوّل مطار نيودلهي إلى مايشبه خلية نحل، كلّ دقيقة تقلع أو تحطّ طائرة عليه بالتناوب في مطار ينقسم إلى ثلاث محطات،في كلّ محطة يقع هذا الصعود والهبوط على مداراليوم في نظام محكم دقيق،الأكيد أنها ليست لعبة أطفال في حديقة للتسلية !

رحلة العودة

كنت أتابع مسار رحلة العودة على الشاشة المركبة أمام مقعدي على الطائرة،كان الخوف من المجهول يعتريني من حين لآخر، خاصة في أجواء باكستان وإيران، عندما تذكّرت ما حدث للطائرة الجزائرية التي كان على متنها وزير الخارجية الجزائري محمد الصديق بن يحي، وقد دفع حياته لأجل السلام، إذ كان في مهمّة وساطة لإيقاف الحرب الدامية بين العراق وإيران، فسقطت الطائرة بصاروخ و هلك جميع ركابها عام 1982م.

ولأن التاريخ يعيد نفسه أحيانا، فقد انتابني إحساس مشابه لرحلتين مختلفتين رغم اختلاف الموضوع و تباعد المكان والزمان،الحالة الأولى عندما استحضرت ذاكرتي صورا من رحلتي إلى العراق عام 2002م، حيث كنّا على طائرة تحمل قيادات اتحادات الكتاب العرب قاصدين بغداد للمساهمة في فك الحصار المضروب على العراق من قبل بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية، قبل غزوهما له بأيام،لقد حلّقت الطائرة في أجواء شمال العراق انطلاقا من

دمشق متحدّية الحصار الجوي، و كان يمكن أن تسقط الطائرة بصاروخ أمريكي أو بريطاني، أو حتى عراقي و لا غرابة في ذلك، لأن القيم و المبادئ تنأى عن العقول في الحروب والصراعات الكبرى، لذلك لم يكن الأمر مستبعدا في عهد الرئيس صدام حسين وهذا قصد صناعة الحدث الإعلامي.

الحالة الثانية في هذه السنة 2020 م عندما قصدنا الهند ونار الظلم مشتعلة ضد فئة من أبناء الهند، الذين رأينا في عيونهم نظرات الاستئناس بنا، و كأنهم أسرى جئنا لفك قيودهم، بينما كان يعترينا خوف من إيقاف الشرطة الهندية لنا، تبعا للأسئلة و التعليقات التي كان يكتبها أصدقاؤنا على صفحاتنا الفيسبوكية،حول ما يقع للمسلمين بالهند، والتي كانت أحيانا مستفزة للنظام الحاكم هناك .



حطّت بنا الطائرة في مطار الدوحة صباح يوم جميل، شعرت بالسكينة كأنني أدخل بيتي، استراحة مسافر في عاصمة قطر مدّة يومين، مدينة الدوحة لؤلؤة العرب ..

في السابع من شهر مارس 2020م عاد العصفوران إلى عشهما، الطائرة القطرية تنزل بمطار الجزائر الحبيبة، وجدت أهلها في هلع بسبب قدوم وباء (كورونا كوفيد 19)... و بعد أيام قليلة من عودتنا ، أغلقت المطارات وعلّقت الرحلات الجوية في جميع أنحاء العالم بسبب انتشار هذا الوباء في بلدان العالم حيث كثرت الوفيات، وظل النّاس عالقين في المطارات شهورا، في انتظار طائرات بلدانهم لتعود بهم إلى أوطانهم.. وبقيت في البيت أثناء الحجر المنزلي كناسك هندي أكتب تفاصيل هذه الرحلة، وأتساءل من حين لآخر:

ماذا لو قدّر لي البقاء في الهند ؟ هل تتحول رحلتي إلى حكاية أخرى لا تسع ذكرها هذه الصفحات؟!

وغبت في دوامة تفكير طويل، في حلم يقظة حول هذا الكابوس المتوقّع من المجهول، وتخيّلت شريطا للأحداث التي قد تقع لو بقينا مجبرين في الهند، لاشك أنها ستكون أحداثا تشبه الأفلام الهندية...أو نصبح رهائن أتباع "راما" ، وحينئذ يكون لي متسعا من الوقت لمطالعة كتاب " فيدا" المقدس عند الهندوس، الذي ألف منذ ثلاثة آلاف سنة في ثماني مائة مجلد،و قد أجد فيه الجواب المقنع للأسئلة الشائكة حول بلد المليون معتقد والمليار نسمة و زيادة.

الخاتمــة

تزور الهند فتتذكر بيت جدتك حيث الأشياء العتيقة كبرنوس جدّك و عكازته، و شكوة اللبن، وقربة الماء، والرحى الحجرية والحكايات الشعبية، كذلك الهند جدّة البشرية، كانت رحلتنا غير عادية، عشرة أيام مرّت كلمح البصر، وهي فترة قصيرة لا تسمح للزائر بالإرتواء من عطش الإكتشاف، وإشباع شغف الفضول، وتكوين رؤية شاملة عن بلد شبه قارة، كلّ ولاية فيها من المميزات و الخصائص و الطقوس ما ينسيك في ولاية أخرى، و قد تحتاج كلّ واحدة إلى شهر كامل، فالزائر إلى بومباي و حيدرأباد والبنغال وغيرها، قد يرى ما لم يره في نيودلهي و آغرا و جايبور...

تبدّدت الأحكام الجاهزة المسبقة التي كانت في خلدي، ورأيت الهند بعين زائر يكتشف عالما جديدا مغايرا، زائر ترافقه الحيطة ويسكنه الحذر، مستعدّ لتقبل الظواهر التي تسرّ الخاطر والتي قد لا تسرّه أيضا....

و للقارئ أن يجول بخاطره معي و هو ينزل ضيفا على بلاد يقال عنها أم العجائب والغرائب... هي الهند أم الحضارات

وبلد المعتقدات والخرافات وموطن التنوع العرقي والتعدّد اللغوي والثراء الثقافي الفلكوري...

يومياتي في الهند تجربة فريدة اكتشفت فيها ذاتي من جديد،في الهند وجدت أقواما يعبدون الأوثان والحيوان، ويحرقون موتاهم ويمتنعون عن أكل لحم البقر، يشربون بوله كالعصائر، يباع في الدكاكين في زجاجات كأنّه عطر الياسمين، في عصر حضارة التكنولوجيا والعقلانية مازال العقل البشري أسير القناعات القديمة ...

أمر محيرّ قلّبته في مخيلتي على عدّة أوجه، و لم أجد له جوابا حتى عند الهنود الذين سألتهم، لأن القناعة المتوارثة بينهم لايغيّرها أحد منهم و لو بلغ من المعرفة المعالي إلاّ بهداية الرحمان....

ووجدت قوما يعيشون الإسلام كما نزل، يعبدون الله في قنوت ويتعاملون كالملائكة، متحابين متعاضدين، لا تسمع منهم لغوا أو جدلا، يتخاطبون بالنظرات ويتهامسون بأرق و أعذب الكلمات، إذا نطقوا حسبتهم من أصحاب المعلقات و إذا أكرموك رأيت في كل واحد منهم حاتم الطائي ..

من المسلّمات عند الهنود أن"الإنسان الروحاني تفكيره روحاني يؤدي إلى سلوك روحاني إلى الفعل الروحاني،

وبالتالي فإن معاملته للناس معاملته روحانية" ، وهكذا وجدت المعاملة بين مسلمي الهند معاملة روحانية، لقد أنعم الله عليهم بالسكينة، فسلموا من قلق الوجود وتوتر الوجدان وحيرة الأسئلة، ويحقّ لهم الفخر والاعتزاز بعلمائهم الذين بثّوا هذا الفكر الروحاني، بمواقفهم وندواتهم ومؤلفاتهم، أمثال المفكرين: أبو الحسن الندوي الداعية الإسلامي المولود بقرية" تكية " في الهند عام 1914م ،صاحب المؤلفات العديدة باللغة العربية منها : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، روائع إقبال، المسلمون في الهند، الطريق إلى المدينة، مختارات من أدب العرب، رجال الدعوة والفكر الإسلامي، قصص النبيين في خمسة أجزاء للأطفال، الصِّراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطارالإسلامية ...وغيرها

و أبو الأعلى المودودي وهو من مواليد مدينة حيدر أباد الهندية عام 1903م،عمل في الصحافة، وأصدر مجلة ترجمان القرآن ، كما أسّس الجماعة الإسلامية في الهند وقادها ثلاثين عاما، وله مؤلفات عديدة تتجاوز 60 كتابا، أشهرها "الجهاد في الإسلام": ردّ فيه على "المهاتما غاندي":

- " بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وهذا تلبية لنداء الإمام " محمد علي الجوهري" الذي خطب في الجامع

الكبير بدلهي، ونادى:" ليت رجلا من المسلمين يقوم للرد"، فكان المودودي هذا الرجل، إذ بدأ في مطالعة تاريخ الحروب عند جميع الشعوب، وكتب حلقات متواصلة في جريدة الجمعية، صدرت في كتاب (الجهاد في سبيل الله) عام 1928، ترجم إلى العربية .

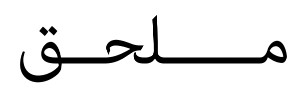
وإذا تحدّث الهنود المسلمون عن خذلان العالم العربي لهم، تذهب نفسك عليهم حسرات، بل على نفسك المنتمية إلى هذه الجغرافيا النائمة على بحر المال السائب، و مع ذلك فإنهم على النصر عازمون وفي مواجهة الظلم متّحدون...

طقوس العبادة في الهند ومنها عبادة البقر و العادات والآثار و الفلكور الهندي مظاهر تدعوك للفرجة، ولا تحدث انبهارا كبيرا، لأن الانبهار يشلّ حواس الإبداع والاختراع، فلو انبهر الجاحظ بحضارة اليونان مثلا ما كتب شيئا من روائعه، ربما زيارتي السابقة إلى الأندلس ورؤية بدائع التراث العمراني الإسلامي ومعالمه في قرطبة وإشبيلة وقصر الحمراء بغرناطة، قد ساهمت في تخفيف حالة انبهاري بالآثار العمرانية في الهند مثل "تاج محل".

وللإشارة إننا لم نطّلع على الوجه العلمي التكنولوجي للهند في مراكزه... مثل: الجامعات ومراكز الابتكارات العديدة ومخابر البحث في الطب والصيدلة والذرّة

والتكنولوجيا والبرمجيات التي تغزو العالم...الخ، هنا يحدث الانبهار فعلا.... فالهند اعتمدت على نفسها في انشاء برنامج صاروخي ناجح صعدت به إلى الفضاء وكان مهندسه زين العابدين عبد الكلام، رجل الصواريخ كما يلقب والهند قوة نووية مهمة يحسب لها ألف حساب... بسطاء لكنهم علماء، ترى أمامك من يلبس قميصا وسروالا بسيطا وينتعل نعلا خفيفا، لكنّه يحمل عقل عالم في الفيزياء، يركب دراجته يوما وصاروخه يوما آخر، وكما أن الفقر منتشر في الهند فالتقدم والتحضر كذلك .

كان يمكن أن يكون الواقع موحشا لجهلنا اللغة الهندية وقليلا الإنجليزية، وهما اللغتان المتداولتان في الهند، لكن الأساتذة والطلبة المتخصصين في الأدب العربي أخرجونا من حالة الاغتراب اللغوي، و ما أصعب أن تكتشف أنك أبكم في الهند! كما أنقذتنا التكنولوجيات الحديثة وأقصد تطبيق الترجمة الفورية على الهاتف المحمول، الذي يوفرّ الترجمة بين لغات العالم في ثوان قليلة، وكان المفتاح السحري لحل العديد من أقفال الفهم و الكلام و التواصل في الهند.


ملحق

ملخص البحث حول موضوع : "كليلة و دمنة"

وتجلياتها في أدب الأطفال العربي (تجربة خاصة).

الأفكار لا وطن لها مسافرة بين الشعوب دون تأشيرة، وكتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع وما يحويه من أفكار وقيم ودلالات والذي ترجم إلى لغات العالم كان سفيرا لأدب الشرق لدى الناشئة في أرجاء المعمورة وفي الوطن العربي بالخصوص لعوامل عديدة، بحيث لا تكاد تخلو منه مكتبة عائلية أو مدرسية، ولاشك أن كتّاب أدب الطفل يدركون أثر كتاب "كليلة و دمنة" في تكوينهم الثقافي والإبداعي، وبصفتي أحدهم يوجّب علي الاعتراف بهذا الرافد المعرفي كأحد مكونات رصيدي الثقافي، ويتجلي ذلك في جل أعمالي القصصية الموجهة للطفل والتي كان أبطالها حيوانات، إذ جاء الحوار على ألسنتها.. ومحتوى هذه القصص لا يتناص مع مضامين قصص "كليلة ودمنة" ولا يتقاطع معها بل هو إبداع جديد في النص واللغة والأسلوب والأفكار، لكن التشابه يكمن في العرض و السرد والأهداف..

1- <u>الأهداف:</u>

يهدف البحث إلى التعريف بنموذج حي للعلاقة الفكرية بين الشعوب، والتأثير المتبادل بينهما، وإلى إيجاد ملامح التشابه

والمقاربات بين النصوص التراثية القديمة والكتابات الإبداعية الجديدة ، لا سيّما من حيث الحمولة المعرفية، والمنظومة القيمية المشتركة، وإبراز الأشكال التعبيرية في الجنس الأدبي الموجه للأطفال عند العرب ومدى تلاقحها مع مختلف التعابير في الأمم المجاورة لها ..

2- المنهجية:

تتمحور منهجية البحث في:

أ - مدخل عام يشرح أهمية الموضوع

ب - دراسة لعيّينات من القصص ومقارنتها بما ورد في كتاب كليلة ودمنة على ألسنة الحيوانات مع استظهار القصص المطبوعة وترجماتها إلى اللغتين الفرنسية (ورقيا ورقميا) والإنجليزية (رقميا).

ج - الاستنتاج العام.

3- أدوات البحث:

وهي مجموعة مصادر ومراجع أهمّها: كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع وقصص (رابح خدوسي) أذكر منها: سباق الحيوانات، حديقة الذئاب، معلمتي الفراشة،جبل القرود ،الديك والشمس، الهدية العجيبة ...

4- <u>أسئلة البحث</u>:

يمكن أن يجيب البحث على عدّة أسئلة، ومنها :

- ما هي المضامين التي اشتغل عليها كتّاب الطفل قديما وحديثا في نصوصهم لترسيخ القيم الإنسانية كالجمال والصدق والحرية والسلم؟

- ما هي أساليب و كيفية توظيف الرمز والمجاز لتحقيق الدلالة وتبليغ الرسالة قديما وحديثا في فن الكتابة للأطفال؟

- ما هي العناصر المستحدثة في المضامين الأدبية في قصص الأطفال، مقارنة بما ورد في كتاب "كليلة ودمنة"؟

- هل يمكن لألسنة الحيوانات أن تشدّ القارئ الصغير في عصر التكنولوجيا الحديثة ؟

الفهـــــرس

الرحلة القادمـة تكتبها أنت.....